كتاب في جريدة

أصدرته منظمة الأونيسكو عام 1996

عدد 135 - 4 تشرين الثاني 2009

علويّة صُبح

مريم الحكايا

رسوم نجاح طاهر

الشريك الثقافي

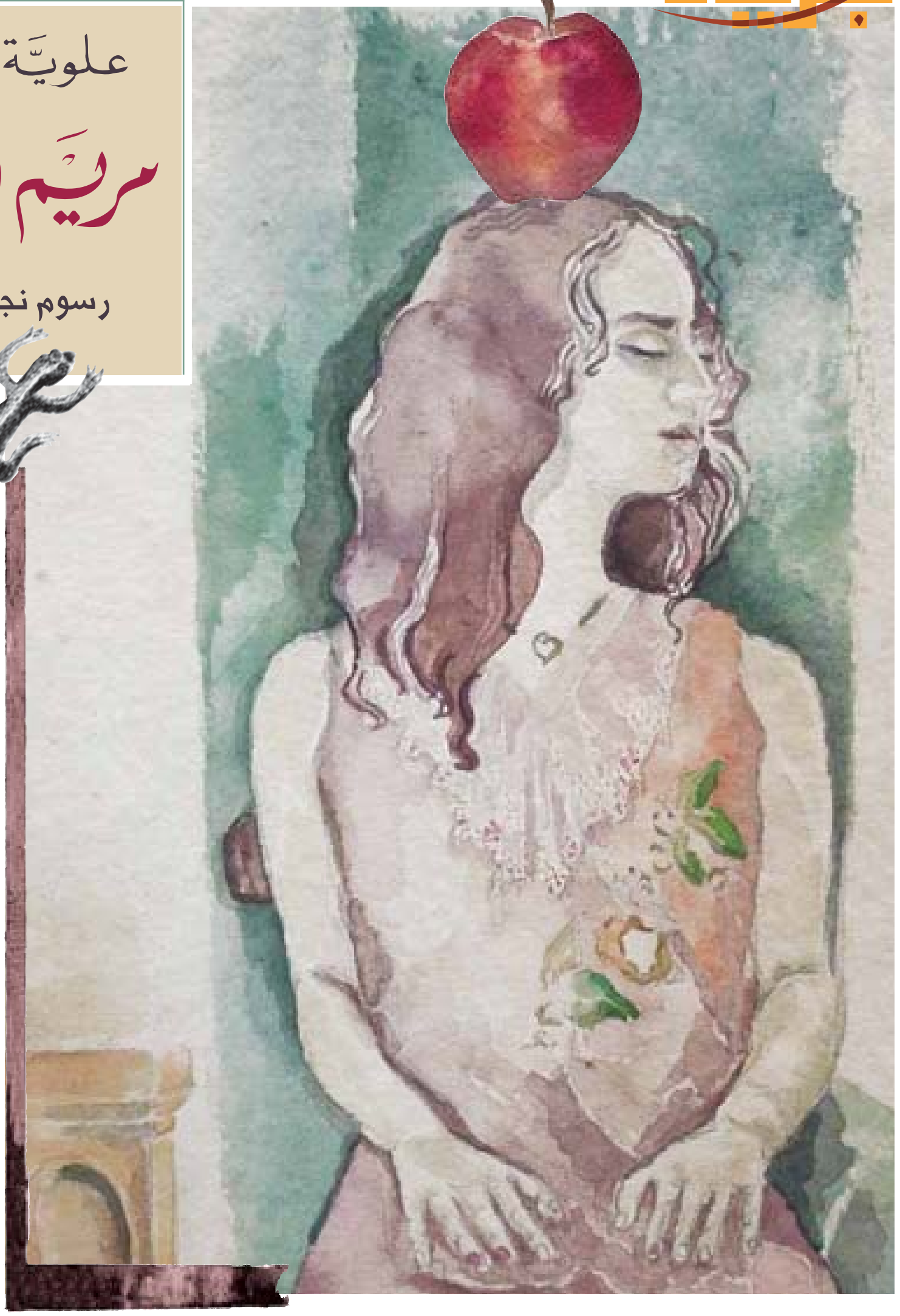

MBI AL JABER Foundation

المؤسسة الراعية

اقرؤا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على
www.kitabfijarida.com

سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koichiro Matsuura المدير العام لليونسكو ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمدير عام منظمة اليونيسكو للتسامح والديبلوماسية والسلام.

برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة اليونسكو UNESCO وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس وتنمية الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.

الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني لـ «كتاب في جريدة».

حكاية « مريم الحكايا»

أمضت علوية صبح زهاء خمسة عشر عاماً أسيرة رواية كانت تكتبها أو تحياها كهاجس يومي، وكثيراً ما كانت تحدث أصدقاءها عن أجواء تلك الرواية وعن بعض شخصياتها وأحداثها، لكن الرواية المزعومة تحولت طوال تلك السنوات الى ما يشبه الحلم الذي يمني الكاتب نفسه به عادة، وظلت علوية صبح صاحبة كتاب يتيم هو كتابها الأول « نوم الأيام» وكان صدر في العام ١٩٨٦ .

كان يجب على علوية صبح أن تنتظر كل تلك السنوات ليتحقق حلمها وليصبح مشروع الرواية رواية حقيقية، رواية من لحم ودم، من ذكريات وهواجس، من آمال وخيبات.

وسرعان ما بدت علوية في روايتها « مريم الحكايا» روائية طليعية تدرك خير إدراك أسرار السرد وتقنيات القص وتجيد لعبة التجريب الروائي التي أتاحت لها أن تجعل روايتها أكثر من رواية وشخصياتها مزيجاً من الحقيقة والوهم.

كم بدت مفاجئة حقاً هذه الرواية التي لا تحمل سمات الرواية الأولى ولو كانت رواية علوية صبح الأولى. إنها رواية النهايات التي يؤول إليها فن الكتابة، فهي تخفي الكثير من الوعي السردي والخبرة التقنية والمعاناة والعمق والبساطة والشفافية... رواية كأنها سليلة تجربة طويلة في ميدان الكتابة الروائية، رواية تتأمل في الفن الروائي وتفضحه وتعريه فيما هي تمعن في بناء نفسها ورصف وقائعها ورسم أجوائها والشخصيات.

تعلن الراوية مريم في مستهل الرواية: « المسألة انتهت بالنسبة إلي ». أما الختام فينتهي في الشك، لم تتأكد من شيء، على أن هذا الشك سيشمل الكتابة نفسها، بل نسيج الحكايا التي سردتها مريم (البطلة) على علوية صبح الكاتبة المختفية التي وعدت مريم وسواها من الشخصيات في كتابة حكاياتها.

اختارت علوية صبح لعبة « الرواية داخل الرواية» لا لتخلق جواً من الفانتازيا والطرافة فحسب بل لتمعن في السخرية من الفن الروائي وفي الشك فيه وفي الحكايات والشخصيات والواقع والماضي... والرواية لن تكتمل إلاعبر ذلك الشك المضطرد في الشخصيات ووقائعها.

لكن الرواية ليست رواية واحدة أصلاً، إنها مجموعة حكايات ترويها البطلة أو الراوية مريم خلال بحثها عن الكاتبة التي يجب عليها هي أن تكتب، لكن مريم ستكون قرينة علوية صبح وستروي عنها، وعوض أن تتلبس الشخصية الراوية قناع الكاتبة يحصل العكس، ترتدي الكاتبة قناع الراوية (البطلة) لتنفصل عن نفسها وتتحرر من أسر « السيرة الذاتية».

وعلاوة على لعبة الرواية داخل الرواية تعتمد علوية صبح تقنية « الروا ية المضادة» عبر تعريتها علانية تقنيات الفن الروائي وجعل روايتها رواية في طور التكون. وقد لا تكتمل هذه الرواية التي تسعى الى التمرد على الفن الروائي نفسه، أو الرواية التي لا تروي قصة واحدة بل قصصاً تتداخل بعضها في بعض، أو الرواية التي تتقاطع فيها أنواع شتى من الأنواع والتقنيات. إنها رواية الحكايات التي تنسجها الكاتبة ببراعة، رواية المتاهة السردية التي تولد القصة فيها من القصة والحدث من الذكرى والموقف من اللقطة.

يكتشف القارئ منذ الصفحة الأولى أنه ليس أمام رواية تقليدية ولا أمام رواية واحدة، فالرواية نفسها هي سيل من الحكايات، والزمن أجزاء زمن، والذاكرة بقايا ذاكرة وكذلك المكان والشخصيات. وفيما تغدو الرواية رواية جيل ضائع في بيروت الحرب (وما قبلها) تضحي في الحين عينه رواية الماضي المفقود، ماضي الريف والعائلة، الذي تمعن الراوية في فضحه انتقاماً ولكن لا لنفسها ولا لأحد، الانتقام يصبح ضرباً من ضروب العبث، والفضح يصبح فعل تحرر من وطأة الذاكرة.

وكم نجحت الروائية في جعل حكايا الجيل الجديد موازية لحكايا العائلة والريف والماضي، فالزمانان كلاهما انتهيا بالخيبة وأشخاص الماضي ليسوا أشد براءة وتفاؤلاً من أشخاص الواقع أو الحاضر، حتى وإن بدت الأم التي تنتمي الى الزمن الأول أشبه بالطيف الذي من لحم ودم والذي لن يغادر مخيلة مريم لحظة، فالأم هي بمثابة الخيط الداخلي الذي استطاع أن يلحم حياة مريم المفككة والمبعثرة ويربط ماضيها بحاضرها وواقعها بأوهامها.

هكذا تطل وجوه الجيل الجديد التي خيّبها الواقع الأليم وقصف أحلامها. مريم الراوية عادت الى أمين بعد خمسة وعشرين عاماً لتتزوج منه وتهاجر الى كندا، ابتسام التي قاتلت في صفوف الثورة الفلسطينية تقع ضحية زواج تقليدي، ياسمين الفتاة الثورية والمتحررة تتحجب وتصبح غريبة عن المدينة، زهير الطبيب الذي حاول أن يكون كاتباً مسرحياً يختفي بغموض، كريم زميل مريم في كلية الحقوق يصبح طائفياً وينادي بـ « العرق» والقرابة.

كل هؤلاء وسواهم يكتشفون خيباتهم ويعيشون هزائمهم الشخصية والعامة ويستسلمون لأقدارهم الجديدة: لماذا انهزمنا؟ لأننا كنا كاذبين أم لأننا كنا صادقين كل الصدق؟ هذا السؤال الذي تطرحه الراوية يمثل حقيقة هذه الشخصيات الهامشية التي لامست نهاياتها غير المرجوة في الرواية.

أما في الجهة الأخرى من الرواية فيقوم عالم الماضي أو عالم القرية عبر نماذجه النافرة: الأم، الأب، الخالات، الجد، الجدة، الأقارب... وكذلك البئر والقبور ومجنون القرية والغريزة الحيوانية والقتل والخرافة.

يستحيل اختصار رواية « مريم الحكايا»، فهي رواية الحكايات التي لا تنتهي، رواية الجسد والذاكرة، رواية الحاضر والماضي، رواية الحرب والريف، رواية المدينة والضواحي...

غابت علوية صبح سنوات طويلة وكاد أصدقاؤها ييأسون من عودتها الى الكتابة ولكنها في عودتها ولو المتأخرة استطاعت أن تحضر للتو، حضوراً طاغياً وفريداً. أما روايتها الضخمة (٤٢٦ص) فاستطاعت منذ اللحظة الأولى أن تحتل المكانة التي تليق بها (وبتلك السنوات الطويلة)، في صدارة الحركة الروائية اللبنانية الحديثة، إنها الرواية الأولى التي تحمل ملامح النهايات لا البدايات.

علوية صبح

- كاتبة وروائية لبنانية.
- صدرت روايتها « اسمه الغرام» مؤخراً عن دار الآداب.
- آخر أعمالها رواية « دنيا» الصادرة عن « دار الآداب» عام ٢٠٠٦ وتترجم إلى لغات أجنبية عدة حتى الآن.
- صاحبة رواية « مريم الحكايا» أيضا عن « دار الآداب» والتي أثارت ضجة كبيرة، وترجمت إلى الفرنسية عن دار غاليمار في باريس، وتترجم إلى الالمانية عن دار سوركامب، وإلى لغات أجنبية عدة.
- صدرکتابها الأول « نوم الأيام» – نصوص قصصية العام ١٩٨٦ .
- شاركت في العديد من المؤتمرات الثقافية في بيروت، القاهرة، الكويت، الإمارات العربية المتحدة، عمان، باريس،ألمانيا، كوريا الجنوبية، ومدن أخرى. وقدمت شهادات عن تجربتها الكتابية ودراسات حول الرواية والمرأة والإبداع، منها دراسة لمنظمة الأونيسكو حول الإبداع النسائي في الحرب اللبنانية العام ١٩٨٥ خلال المؤتمر الذي عقد في باريس عن« المرأة اللبنانية والحرب» .
- تعمل الكاتبة في الصحافة منذ أوائل الثمانينات، ولها العديد من النصوص الإبداعية والمقالات النقدية في الصحافة اللبنانية والعربية، من بينها جريدة « النهار» و« النداء».
- نالت جائزة السلطان قابوس للرواية العربية عام ٢٠٠٦.

عبده وازن

رسوم وإخراج
نجاح طاهر
رسامة وتشكيلية من لبنان

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَرّ
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

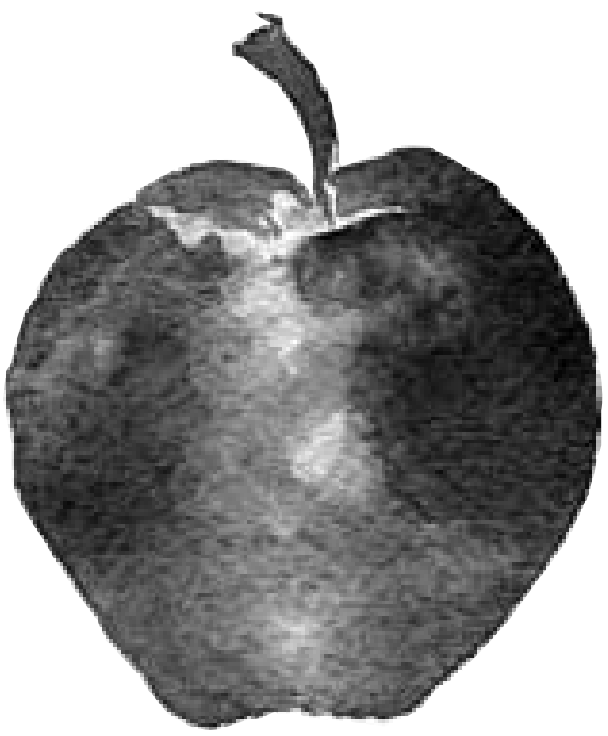

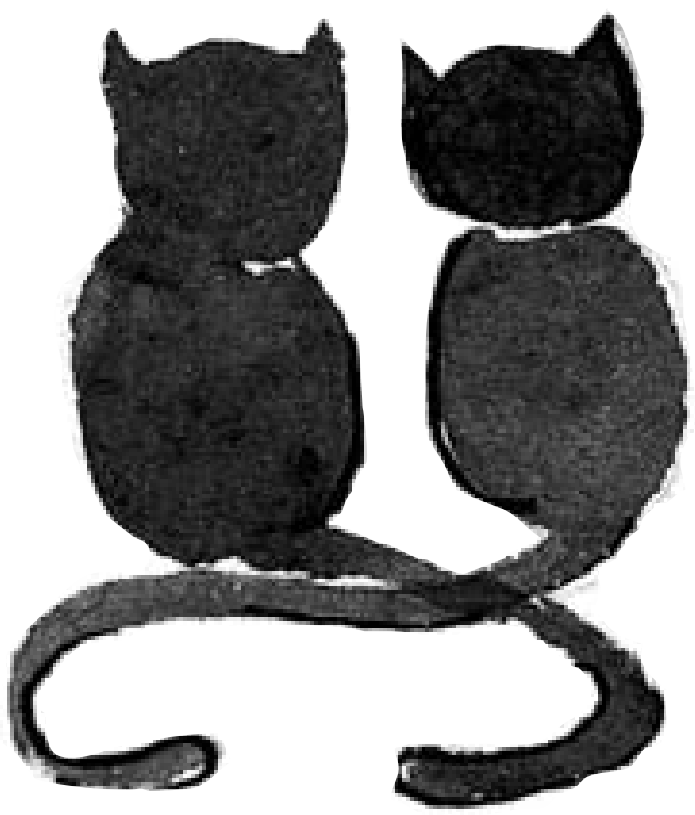

الهيئة الاستشارية

أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
أحمد ولد عبد القادر
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد الله الغذامي
عبد الله يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

الصحف الشريكة

الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام الله
الأيام – المنامة
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض – الرياض
الشعب – الجزائر
الشعب – نواكشوط
الصباح – بغداد
العرب – تونس،طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القدس العربي – لندن
المصري اليوم – القاهرة
النهار – بيروت
الوطن – مسقط

رواية مريم الحكايا
صادرة عن دار الآداب طبعة أولى – طبعة ثانية

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول.

سنتر دلفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

عدد رقم 135
(7 تشرين ثاني 2009)

مريم الحكايا

علويّة صُبح

المسألة انتهت بالنسبة إليّ.
فأنا يئست من الجواب، وعجزت عن السؤال، بل عن العثور عليها.
الفيزا أخيراً بين يديّ. ولم يبقَ أمامي سوى أيام معدودة، فالوقت الباقي يكاد لا يسمح لي أن أجهّز نفسي وأقوم بالزيارات التقليدية لأودّع أهلي وأقاربي وجيراني وأودّع «ابتسام» وياسمين وعلوية وما استطعت من شخصيات روايتها.
أودّع علوية؟
ولكن أين هي علوية صبح لأودّعها، فالمسألة انتهت بالنسبة إليّ، وأنا يئست من أسئلة لا أجوبة لها، منذ أن راحت واختفت ولم أعد أعرف شيئاً عن مصيرها.
لن أسألها ثانية: أين أصبح كتابك يا علوية؟
بالتأكيد لن أسألها!
كنت كلما شاهدتها بين فترة وأخرى في السنوات الأخيرة وسألتها أين أصبحت قصتنا، أحس وكأن لساني امتدّ كسيخ من نار ليلدغ جرحاً طرياً مفتوحاً فيها، فتشيح بنظرها عني، وريح من ألم خفي أراها تهبّ في عينيها، تعصف بجفنيها في حركتي صعود وهبوط سريعتين، ونظراتها تدوخ وتتوه في دوران الكرة الأرضية، لكن حركة إغماض عينيها وفتحهما بسرعة جنونية، وهما تتأرجحان، سرعان ما تهدأ ليستقر بؤبؤا عينيها في عينيّ. تغيّر الموضوع لتسألني بصوت متكسّر ومتقطع وجاف، جفاف الريق في الحلق، عن أخباري مع عباس أو عن أخبار ابتسام أو أيّ من شخصيات كتابها التي أخبرتها كل شيء عن حياة كلّ منها منذ سنوات بعيدة... السنون تقدمت، والشخصيات ذهبت إلى مصائر أخرى لا تعرفها، وذهب كل ما حكيتُه سدىً.
لماذا رويت لها كل تلك السنوات، ولماذا استمعت إليّ إن لم تكتب؟
هل اختفت أم تغيرت، مثلما تغيرت ابتسام لكي تكون «in» وليس «out» في حياتها الجديدة التي بدأتها؟ أم صارت مثل ياسمين تخاف من كل أحلامها السابقة بالاختلاف عن بيئتها التي طالما حلمت بها.
أريد أن أعرف.
هل تغيرت مع من تغيّر؟ أم ما زالت مثل ما رحنا جينا، كأنها خارج الزمان والمكان، أو نسيت مثلما نسي جارنا في القرية أبو يوسف اسمه بعدما ماتت زوجته خديجة وصار ينادي كل رجل يلتقيه «يا أبو يوسف». وحين يقول له أحدهم: إنت أبو يوسف، يبكي ويقول: لا.. أنا مش أبو يوسف، إنتو كذابين، إنتو أبو يوسف.
راحت واختفت مثلما اختفى بطلها في الرواية، وتوأمها زهير، وتركت مصائرنا ضائعة في روايتها. لم أعد أعثر حتى على اسمها في صفحات الجرائد والمجلات. حتى بيتها القديم الذي أعرفه، في أول شارع الحمراء، لم أجد اسمها على بابه، بل البناية كلها التي كانت تسكنها وجدتها مستوية مع الأرض.
أذهب إلى المكتبات كلما سمعت بأن رواية جديدة صدرت. أتفحّص بعينيّ عناوين الروايات وأسماء المؤلفين، فلا أعثر لا على اسمها ولا على حكاياتنا. بل وأحياناً أشتريها كلها، موهمة نفسي أنها ربما كتبت روايتنا باسم مستعار. ولكن ما إن أبدأ القراءة حتى أتأكد من اختفائها واختفاء قصتنا.
أنا لم أعد أحتاج لقراءة قصة حياتي في كتابها، لأن قصتي هنا انتهت، لكني أريد أن أعثر عليها فقط لأودّعها، ولأقول لها إنني اخترت لنفسي مصيراً خارج روايتها، ولكي أعرف مصيرها وسر اختفائها، هي وبطلها زهير فقط.

راحت وغابت وانقطعت أخبارها عني.
لم تعد تزورني في بيتي، مثلها مثل ابتسام وياسمين، تقف الواحدة منهن أمام الباب وتضغط على جرس البيت أو تدقّ بأصبعها حين تكون الكهرباء مقطوعة، فأعرف من رنّة الجرس أو من طريقة دقة الباب من منهنّ الزائرة، ولا سيما أنني كنت أحفظ أوقات زياراتهنّ عن ظهر قلب.
لم تعد غرفتي تمتلئ بأحاديثهن. اللقاءات خفّت وجفّ الكلام كما يجفّ ماء النهر ويقلّ تدريجياً لينضب في آخر مسافاته البعيدة التي يقطعها. ولا أحسب أن الأمر يعود لانشغالهن بحياتهن الجديدة. ولكن البشر يبدون لبعضهم، أحياناً، كما قطعة ثياب أو حذاء أو رائحة عطر تذكّرهم بمناسبة وبمناخات تستحضر تفاصيل دقيقة معها. صارت الواحدة منهن في تجنّبها للأخرى كأنها تتجنّب الحرب أو تهرب منها ومن ذكرياتها.
قبل ذلك التاريخ كانت زياراتها متقطعة، تغيب أحياناً أياماً أو أسابيع أو شهوراً ثم تعود لتدقّ بابي، فأنا لم أكن أبرح البيت كثيراً، خاصة في أوقات الحروب الصعبة. عملي في مكتبي كان شكلياً آنذاك، أقبض آخر الشهر رغم عدم انتظام دوامي. أقضي معظم وقتي في البيت، وفي غرفتي بالتحديد، إذا لم يكن لديّ موعد مع عباس... وفي السنوات الأولى للحرب بشكل خاص حين كانت علوية وابتسام تذهبان إلى جبهات القتال وتختفيان، كنت أحسّ أن الواحدة منهما مثل غنمة ذهبت وسرحت وعشّبت في مرج الحرب لتعود وتجترّ
في زريبة غرفتي وتحكي لي عمّا عشّبته.
لم أكن أشتمّ في علوية آنذاك ذلك الغموض الذي ارتسم في ملامحها لاحقاً ولم أستطع تفسيره.
كنت ما إن أفتح لها الباب

حتى أرى ابتسامة عينيها من خلف زجاجتي نظارتها السميكتين آنذاك، وبالطبع لم تكن وقتها قد أجرت عملية تصحيح للنظر لتتخلّص من تلك النظّارة التي كنت أفضّل وجهها بها، وكانت جزءاً من ملامحها وشخصيتها، ولا أدري إذا كان إجراؤها للعملية يندرج في إطار اليأس واللعب بعينيها والمجازفة بهما كما لعبت بحياتها، أم أنه هاجس التجميل وعدوى اكتسبتها من شغلها في مجلة نسائية، الجمال هاجس أساسي فيها؟

آنذاك كانت تأتيني بقبعتها المتسخة، تجلس على الصوفا في غرفتي وتتربع بذلك الجينز الأزرق الذي لبسته لسنوات، وتتكوز عظمتا ركبتيها تحت الجينز، وهي تحكي لي عن المعارك التي خاضتها على الجبهات، بعدما ترفع القبعة عن رأسها بيدها وتغلغل يدها الأخرى في شعرها وهي تمررها داخله، نافضة خصلاته المتلاصقة بحركات متتالية لتعيد له بعض الحيوية والحجم ولتتهوّى جلدة رأسها وجذور شعرها المرنّخ واللامع بامتزاج العرق والزيت. تبتسم وهي تحكي وأنا أتطلع إليها وهي تقطع حديثها لتقول: أف يا مريم... صار لي زمان ما حمّمت شعري.

بعد تلك السنوات، صرت حين تغيب وتعود لتدقّ بابي أعرف أنها إما مشغولة بالكتابة أو بصداقات جديدة أو بقصة حب لا أعرف تفاصيلها. وحدها ابتسام كانت تحكي لي كل شيء بالتفصيل، ربما لأنها أقرب إليّ. أنا وابتسام ترافقنا منذ نعومة أظفارنا. كانت دائماً بالنسبة إليّ أشبه بكتاب مفتوح، قبل أن تغلق هذا الكتاب لاحقاً، وقبل أن يجف الكلام في فمها، وتفقد ماءه وغزارته. حين كانت مشغولة بنضالاتها كنت أقرأ في عينيها حتى الحركات الصامتة التي يخفيها بريقهما. أما علوية، فكان يزداد غموضها مع الأيام، ولا تعود بعد غيبة طويلة إلا عندما يكون في فمها ماء كلام غير قادرة على بلعه، ومع ذلك تأتي لتسمع أكثر مما تتكلم.

هنا في بيت أبي، في غرفتي، غرفة الحكايات المكونة من خزانة خشبية بنيّة اللون، تتوسطها مرآة ملصقة على درفتها الوسطى تتناسب مع السرير «الفورمايكا» الذي اشتريته بمبلغ بسيط موقتاً، بعدما طار ذات يوم السرير القديم بقذيفة، والموقّت صار دائماً. وعلى هذه الصوفا وغطائها المبقّع بالورود الحمر والخضر، وعلى الوسائد المتوزعة على الأرض والتي صنعتها بيديّ كانت تتجمع الحكايات كما يتجمع الماء في بئر.

كانت غرفتي ملجأ لحكاياتهن وأسرارهن. أستقبلهن فيها ويتوزعن جلوساً على الأرض وعلى الصوفا التي ما زالت تبدو حتى الآن حرائق سجائرهن عليها بقعاً صغيرة دوائرها سود. أغلي لهن القهوة في الركوة الكبيرة الحجم، وتتصاعد الحكايات من أفواههن بحرارة أعلى بالتأكيد من حرارة البخار الذي يتصاعد من الركوة. كنا نحتاج أن نحكي لبعضنا كل شيء، حتى عن حميمياتنا. تحتاج الواحدة أن تحكي بحضرتهنّ، لتكون الأخريات مرايا تكتشف فيهنّ وجوهها ووجوه الآخرين. ويا الله كم كنا ننحاز ونتواطأ مع بعضنا. حين حكيت لهنّ مرة ماذا فعل بي مصطفى، والسبب الذي من أجله قطع علاقته بي، بعدما كنت متيّمة به وأفعل ما يطلبه مني، كانت الشتائم تنهال عليه لتتكوّم على الصوفا وفي الغرفة كلها، وأقلّها «عمى بقلبه» و«الله لا يوفقه». وحدها علوية صبح علّقت «مش معقولين الرجال»، ولكنها أتبعت التعليق بضحكات كأنها عيارات نارية انهالت على رأسي، وهي تنقلب على ظهرها من الضحك.

لم أدع شاردة وواردة إلا وأخبرتها إياها عن حياتي وحياة شخصيات كتابها. بل عرّفتها على أهلي وخالاتي وعمّاتي، وحشرتْ أنفها حتى بجيراني وجاراتي، وصار لها صداقات معهم، وباتت تعرف كل خبريات البناية التي أسكنها والشارع الذي أقطن فيه، وكنت سعيدة بالأمر لأنني بالنهاية سأعثر على قصتي.

هل نسيتنا يا ترى؟

على أيّ حال هي لم تكتب.

أنا سأحكي الحكاية قبل أن أغادر.

هي لا تعرف المصائر التي ذهبنا إليها بالتفصيل، إذ إن كل م تعرفه في السنوات الأخيرة عن شخصياتها لا يقع إلا في باب العموميات، فكلما ألتقي بها على فترات متباعدة وبعد إلحاح مني للقائها، كانت تسألني عن شخصيات روايتها من باب رفع العتب، وربما من باب الفضول فقط.

كنت أجن من أسئلتها عنهم وأضيع ولا أعرف بالتحديد إذا كانت فعلاً قد خرّفت ونسيت كل شخصياتها أم أنها تمثّل دور النسيان. كانت تعقد جبينها و«تصفن» قبل أن تتحزّر الأسماء التي تختلط عليها، وتعطي أسماء أخرى لا أعرفها ولم أسمع بها من قبل، تشبه إيقاع أسماء أصدقاء لها أو ممثلين أو رجال سياسة. ثمّ تحكّ جبينها المعقود وجلدة رأسها بيد، فيما اليد الأخرى تحركها كبرمة الدولاب التي تبرم لتستقرّ على رقم وهي تسألني:

- ولِكْ يا مريم، شو صار فيه هيدا يللي إسمه... يللي... قولي معي...

- يللي مين يا علوية؟

- يللي... ولك ذكريني... يللي شو اسمه... يللي رحنا مرة لعنده وكان بالبيجاما.

- أيّ بيجاما؟

- ولك هيدا يللي كانت بيجامته مقلّمة واسعة وزرارا مفتوحين.. بس مش متذكرة اسمه.

- متذكرة مبيّنله كل شي.. بس مش متذكرة اسمه؟

- ولك بلا تقل دم.. قولي معي.

- ولك شو بدي قول، فقّعتيلي قلبي، في حدا بينسى هيك، والاّ إنت بتعملي حركات أو بتمثلي.

وحين أحزر الاسم الضائع في ذاكرتها، تنفرج أسارير وجهها وهي تسألني: إيه دخلك شو صار فيه هيدا، خبريني. وتستنفر للاستماع، ولكن ما إن أبدأ بالكلام لأخبرها حتى تشرد نظراتها وتصبح وكأنها في مكان آخر.

عدم الاهتمام بجوابي كان بمثابة اليقين عندي. فعلوية إحدى بطلات الرواية، وأعرفها جيداً. أعرف متى يتفتّح ذهنها كأوراق شجرة عندما تسمع، وأعرف متى تغلقه

كما يغلق المرء الكتاب.

شاهدت وجهها بعينيّ كما لو أن وجنتيها ضفّتا كتاب أغلقتا على بعضهما. قديماً كنت أرى عينيها تتفتحان ويتفتح وجهها كله وهي تسمع. كانت تسمع بعينيها لا بأذنيها فقط. ويصبح بؤبؤا تينك العينين ثابتين كأنما أحدهما يصير كإسفنجة مدوّرة تتشرّب وتتبلّل بكلامي، وثانيهما يتشرّب حركات يديّ وكل شيء بي حين أحكي، وأرى في مرآتهما غضبي وهدوئي وصمتي!

أريد أن أعرف: هل ماتت مع من مات من شخصيات روايتها، أم ما زالت بين الأحياء؟ هل ماتت عام ١٩٧٥ عندما انفجرت الحرب وانفجرت معها مواهبها في السياسة والقتال؟ أم في عام ١٩٧٨ عندما دخلت إسرائيل لبنان للمرة الأولى واحتلت ما يسمى بالشريط الحدودي وأطلقت عليه في البداية اسم دولة لبنان الحرّ؟ أم ماتت عندما قاتلت في الجبل قبل ذلك عام ١٩٧٦ أثناء دخول الجيش السوري إلى لبنان، ووقفت على طريق بحمدون حاملة آلة حديدية تُسمّى «السمينوف» من البلاد التي تنتهي هي وأسماؤها «بالأوف»؟ أم ماتت عند دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت عام ١٩٨٢ وقاومت مع من قاوم آنذاك؟ هل ماتت في الحرب أم بعدها؟

أريد أن أعرف!!

لا. أنا متأكدة أنها لم تمت قبل عام ٨٦ على الأقل، فأنا قرأت لها آنذاك كتابها «نوم الأيام» الذي صدر في ذلك العام، أمّا بعد ذلك فأنا لست متأكدة من أنها ليست بين المفقودين. ولكن ألا يمكن أن يكتب الأموات أيضاً؟

لا أدري ما الذي مات فيها حتى انقطعت عن الكتابة، ولا أدري ما الذي بدّلها وغيّرها. هل هو موقف من ذكرياتنا أم ذكرياتها؟ هل يئست وكرهت الكتابة أم يئست منّا، نحن شخصياتها، وخافت منا ومن حكاياتنا فهربت واختفت؟

ولماذا؟

أنا سألتها هذه الأسئلة مراراً، من زمان قبل أن تختفي، ولكنها لم تكن تجيب. صمتها كان يعيد نهر الأسئلة إلى داخل حلقي، فأبتلعه وأنا أغصّ وأمتلئ بماء ذلك النهر.

تُرى هل جنّت مثلما جنّ توأمها وصديقها الكاتب المسرحي زهير؟

لا. لا أعرف تماماً ماذا يدور في رأسها. بل كدت أصدّق في لحظة من اللحظات زهيراً حين قال لي ذات يوم بعيد:

ـ علوية ملعونة، أنا عارف بدها تجنّني. بعرف عادة بطل الرواية ممكن يتآمر على كاتبها ليتحرر منّه، بس الكاتب يتآمر على أبطاله! وليش؟ بس قوليلها إذا أنا جننتني رح تجنّ هي كمان، وإذا اختفيت رح تختفي هي كمان. لازم تعرف هالحقيقة.

ولكني لم أقل لها شيئاً.

لا أدري ما الذي غيّر موقفها منه، فعلوية هي أول من عرّفتنا به، منذ أن جاء المسكين أوائل الحرب من الخارج، شاباً متخرجاً في الطب، ولكنه كان مهووساً بالسينما والمسرح. حين عاد إلى بيروت، تعرفت إليه علوية في مكاتب جريدة الحزب، واكتشفت من الحوار معه موهبةً وعطشاً لكتابة مسرح مختلف، وصارا لمدة من الزمن وكأنهما توأمان.

علوية وزهير، مشروع كاتبة ومشروع مسرحي.

تجرّني من شعري إلى حافة البئر وتفتح غطاءه وتشير بيدها إلى داخله وتقول لي: هون بزتّك. إشارة إصبعها إلى داخل البئر كانت ترمي قلبي فيه، فيهوي إلى داخله. وكان يهوي ثانية ويسبقني إلى داخل البيت فألحق بدقّاته سريعاً كلما أزاحوا غطاءه لتعزيله، ولا أخرج من الغرفة إلا متى انتهوا من ورشة تنظيفه.

خوفي من فراغ بئر الشارع، أيام الحرب، كان يدفعني إلى الخروج للتلصّص على أسرار الفراغات والموت فيه، تماماً كما كان خوفي من أسرار البئر يدفعني إلى التلصّص على أسراره من بابه، حين تكون أمّي على بابه، أتطلّع إلى سطح مائه، في عتمته، بلذّة التلصّص على الأسرار والخوف منها في آن. أتطلّع إلى عتمته التي لا يكسرها سوى انعكاس ضوء بسيط يسمح به النور القليل المتسرّب إلى داخله، فأرفع رأسي قليلاً عن الباب وأحرّكه يميناً ويساراً لأرى تمايله في الماء.

حفر أبي البئر منذ أكثر من ستين سنة، قبل مدّ المياه إلى البيوت. غطاء ذلك البئر تطوّر مع تطوّر الأيام وأخذ أشكالاً عديدة قبل أن يصبح بالشكل الذي انتهى إليه، لتتساوى بلاطته مع بلاط أرض الدار في فترات لاحقة. في البداية كان يغطّي ذلك البئر غطاء برميل يُزاح جانباً عند الاستعمال لنشل المياه منه. ثم استبدل أبي ذلك الغطاء بقطعة تنك قصّها بقياس أكبر قليلاً من حجم باب البئر بعد حادثة وقوع ابنة خالي فيه.

كان باب البئر مفتوحاً حين وقعت البنت فيه. أمي كانت تخرج من الغرفة إلى الدار حين سمعت الخبطة في الماء بعدما رأت ساقين صغيرتين تهويان وتلحقان بالرأس والجسد. خُيّل لأمّي أن أختي زينب هي التي وقعت في البئر.

صرختْ بأعلى صوتها: يا ويلي راحت البنت. وصارت تنتف شعرها بيديها بعد أن نزعت منديلها عن رأسها، وبعد أن أمسك بها نسوة ورجال الحيّ الذين تدافعوا إلى الدار بعد سماع صراخها ومنعوها من أن «تدب» بجسدها في البئر وراء ابنتها. خالي وزوجته، اللذان كانا يعيشان في الجزء السفليّ من دارتنا في غرفة صغيرة شبّاكها يطلّ على الوادي، صعدا ركضاً. صارت زوجة خالي تندب وتولول وتشبّر بمنديل أمي وهي تقول لها بإيقاع ندبي: يا مشحّرة يا فاطمة، يا معتّرة يا فاطمة، ما بيكفيك هموم يا فاطمة، ناقصك تعتير وشحار يا فاطمة، الله يصبّرك يا فاطمة. زوجها، خالي داوود، الذي يتقن السباحة والذي خدم في الجندية الفرنسية أيام الحرب العالمية، غزّ في البئر بلمحة بصر بقميصه وبنطاله في عملية إنقاذ لها. أمسك خالي بالبنت داخل البئر الذي تتخبّط فيه وحملها على كتفه وجسدها مطويّ وملفوف على رقبته كالشال. الرجال الذين تجمّعوا حول باب البئر نشلوه بحبل عريض رُمي إليه، فلفّه أكثر من لفّة على معصمه.

بعد عملية الإنقاذ وصعود خالي وانتشال البنت أولاً عن كتفه كانت المفاجأة. أمي سكتت ذهولاً، وخالي تطلّع إلى ابنته مصعوقاً وهو يرتجف من الماء البارد الذي بلّل ثيابه، فيما زوجة خالي أوقفت ندبها على أمي وتحوّل صوتها بعد صمت إلى ما يشبه زمّور الخطر: ولي يا مشحّرة هيدي إنت يا حليمة وأني مفكرة إنه زينب؟ ولي شو وقّعك بالبير يا كلبة يا بنت الكلاب؟

هجمت زوجة خالي على حليمة لتضربها لو لم يردّوها عنها، فيما البنت ترتجف من الخوف والبرد، وعيناها السوداوان الواسعتان في وجهها الحنطيّ المستدير جامدتان وهي تستعيد وعيها الذي كاد أن يذهب به ثانية خوفها من أمّها، بعدما أوقفوها على رأسها مفرغة معدتها من الماء الذي شربته ومن أسرار ذلك الماء!

فيما بعد، حين كنا نقصد القرية في فترات الصيف، كنا نصدّق أمي ونصدّق ما تراه عيناها. صرنا مع الوقت نرى ما تراه عيناها لأنهما لا تكذبان، ونلمح الجنيّة مثلما تلمحها. فأمي، إيمانها يهتزّ وخوفها يكبر إن لم تصدّق

حكاياتها. «والله قاشع وشايف وهو بياخُد حقها». هي لا تصدّق سوى أنها مظلومة، تعرف خط الحلال من الحرام المرسوم لها. تذهب إلى الشيخ في كل شاردة وواردة، ليفتي لها بما يجب أن تفعله. وتستأذن أبي في كل أمر، حتى وإن أرادت أن تخبز، بعدما «ربّاها» من أول الطريق.

في بداية زواجهما كانت تسأله كم ستخبز، وإن أرادت أن تفصّل لباساً جديداً، عليها أن تستأذنه وتأخذ موافقته قبل الذهاب إلى خيّاطة الضيعة وإلا أكلت قتلة وتأدبت، كما فعل ذات يوم حين كانت لا تزال عروساً. لبست له اللباس الجديد الذي فصّلته واسعاً ويصل حتى الركبة، وحين رفعت فستانها وشاهد اللباس سألها:

- منين جبتيه؟

- فصّلته عند الخياطة مناهل.

- وليش ما سألتيني؟

- مانّو اللباس هاداك اهترى.

وهراها من الضرب كي لا تفصّل لباساً بدون إذنه، وقال لها وهو يراضيها بعد أن ضربها: مانّو يا إم أحمد هيدا للشلح مش للّبس، وما حدا راح يشوفه غيري. فا لَشُو؟ إذا مخزّق أو جديد، أنا شو بدّي فيه؟

وحين أخبرت أمي علوية في بيتنا ما حدث لرأس أختي زينب، مالت برأسها إلى علوية وهي تضع يديها في حضنها وتقول لها بصوت منخفض: كل واحد يا بنتي إله قرينة، ويمكن هاي اللي انفدغت على حفّة البير هيّي قرينة بنتي زينب، وإلا ليش انفدغ راس بنتي مثل ما انفدغ راس هيديك؟

وحين رفعت أمي جسدها الثقيل عن الصوفا، واتجهت بخطواتها المسموعة إلى المطبخ، ارتفع الحزن في لون وجه علوية الذي صار مُغبّراً كلون وجه أمي وهي تحكي، وقالت لي بعدما صفنت مثلما صفنت أمي:

- يعني قولك زهير قرينتي؟ لمّن طيّرت عقله بآخر الرواية، طار الكتاب؟ وإلاّ ليش طارت الرواية بعد ما عقله طار؟

هل كانت أمي تخترع الحكايات لتصدّقها، وهل علوية تخترع نهاية القصة لتصدّقها؟

كل ما أعرفه أن أمي أخبرتني عن خوفها من الآبار.

كل ما أعرفه أنني أخاف من نهايات الماء والحُفَر.

وأذكر خوفي حين رأيت عيني أمي تغيبان في جوفي بئرين، فُتْحتاهُما ارتسمتا حول عينيها. وقفتُ أمامها.. إغماضة عينيها بعد أن أُطبقَتا واستسلمتا للغياب الأخير، تختلف عن إغماضتهما السابقة حين كنت أراهما تتفتحان من جديد. لم تعودا عينَيْ أمي، عينا أمي محاطتان بجفون مكتنزة فائضة. فجأة، حفرتان ارتسمتا حولهما، فغارتا فيهما ما إن أسدلت ستارة الجفنين على الحياة. عيناها بدأتا تغوران أكثر طوال الليل وأنا جالسة بجانب جثمانها أودّعها الوداع الأخير، وهي غائبة في حفرتي عينيها لا تراني. أتطلع إلى لون وجهها الذي صار يشبه التراب قبل أن يُوارى ويتلاشى فيه. كنت أرى عينيها تتحوّلان لتصيرا عيني جدتي تماماً... لم تعودا لأمي.

عيناها ضاعتا عني، وأنا أراهما تهبطان وتغرقان بعيداً في فراغ مغلق ممتلئ بالماء.

في ذلك الصباح، حين هبطتُ من البيت بعد قصف يومين حَبَسَا أنفاسي في بئر صدري، أحسست وكأني أهبط في

فراغ مغلق ممتلئ بالماء، كماء بئر قريتنا، كحفرتي الغياب في عيني أمي. والخوف كان يُحيل لون جلدي إلى ترابيّ يشبه تماماً لون جلدها الذي دخلته وهي ممدّدة في نومها الأخير على سريرها.

صقيع جسدي كان نفسه، فيما رئتاي وحيدتان في عزلة صدري.

عيناي اللتان ضاعتا في الطرقات وغرقتا في الفراغات المغلقة التي حسبتها ممتلئة بالماء، كما ضاعت عينا أمي وغرقتا بعيداً، عادتا إليّ وأنا أرى عباس بعينين جديدتين، فدبّت النار في عروقي هرباً من ظلي البارد الموحش.

لم يكن غير عباس في المكتب.

مكتب لمحامٍ مشهور، من المفترض أننا نعمل فيه لنكتسب خبرة تؤهّلنا لممارسة المحاماة لاحقاً. لكن العمل كان شكلياً في الحرب. أعمال المكتب تحوّلت آنذاك إلى ما يشبه تصريف أعمال الموكّلين، لكن عباس في الوقت نفسه دبّر وظيفة في إحدى وزارات الدولة لها علاقة بمراقبة البضائع. كان العمل فيها آنذاك شكلياً، يقبض آخر الشهر معاشه من الوزارة دون أن يداوم فعلياً.

ما إن دخلت مكتبه حتى قال لي بكل تهذيب إن رأسه يكاد ينفجر من الألم وإن ركوة قهوة لا تكفي لإصلاح اختلال الرأس. بلطف زائد، طلب مني أن أعدّ له ركوة كبيرة، فالمرأة التي تأتي صباح كل يوم للقيام بالتنظيفات وخدمة الموظفين لم تكن قد وصلت بعد.

اتجهتُ إلى المطبخ الصغير ووجدت مجلاه مليئاً بالفناجين والأكواب المتسخة. فتحت الحنفية وتركت الماء ينساب بغزارة فوق الإسفنجة المتيبّسة. وضعت عليها سائل الجلي وغسلت فنجانين صغيرين وركوة القهوة الكبيرة فقط. لم أغسل الصينية الخشبيّة التي حملت عليها الفنجانين والركوة المغطّاة بصحن صغير كي تبقى القهوة حارّة بداخلها، مسحتها فقط بمنديل ورقي وحملتها متجهة إلى المكتب الذي يجلس خلفه عباس ينتظرني وينتظر القهوة التي ستفتح دماغه المغلق.

جلست على كرسيّ قبالته وسكبت القهوة في الفنجانين وأنا أسأله كيف كانت ليلته في ذلك القصف. لا أذكر تماماً بماذا أجابني. لا أذكر إذا كنت قد سمعت ما حكى. أذكر أنها كانت المرة الأولى التي تحادثنا فيها حول أمور شخصية. لا، لم يحكِ لي لا عن زوجته ولا عن أولاده ولا حكيت له عن علاقاتي السابقة. قال لي إنه تعبان، وقلت له إنني تعبانة أيضاً.

قال لي إن رأسه يكاد ينفجر، وقلت له: أنا أيضاً. قال لي إنه مشتاق إلى أن يستلقي بجسده وقدميه وينام على مقعد خشبيّ في حديقة جميلة مليئة بالزهور والأشجار وزقزقة العصافير، يستلقي على ظهره ويتطلّع إلى السماء العالية وينام، ينام ويحلم، وعندما يستيقظ يكتشف أن هذه الحديقة هي لبنان، وقلت له أنا أيضاً.

صرنا نحكي دون أن نعي ما نحكي. نحكي كلاماً يشبه كلام الأطفال.

لم يسألني إذا كانت لي علاقة في حياتي، وأنا لم أتذكر أنه متزوج. قلت له فجأة وأنا أنهض عن الكرسي: «بتعرف طالع على بالي حب!..».

كنت وأنا أحكي أتطلع إلى عباس وكأنني أراه للمرة الأولى: التعب كان بادياً عليه وبدا أكبر سنّاً بكثير في ذلك الصباح. للمرة الأولى رأيت تجاعيد صغيرة متجمّعة حول عينيه السوداوين الصغيرتين، لم أنتبه لها سابقاً. لونه الشاحب كان مزيجاً من لوني الأصفر والأخضر الممتزجين دون خط واضح على عظمتي خدّيه فوق شعر ذقنه وحول صدغيه صعوداً نحو جبهته.

لأول مرة أنتبه أنّ له ذقناً سوداء وشاربين يغطّيان شفته المضمومة. زنداه النحيلان تحوّلا في عينيّ إلى زندين مفتولين لرجل رياضي، حتى أذناه الطويلتان لم أراهما سوى أذنين صغيرتين تحت صدغيه اللذين كادا أن ينفجرا. وكأنني أنا مريم، مريم أخرى. رغم قصري ونحافة جسمي، أحسست وأنا أقف إلى جانبه كأنني بحجم حبة الفستق، أنني أصغر من حجمي بكثير، ويمكن أن أقلب يده التي تمتدّ إلى الطاولة لأجلس فيها كعصفور صغير.

لا شيء غير اللعب للهروب من الموت.

ما بدأ لعباً صار حبّاً. أصبح لقاؤه كل يوم أحد عطشاً وجوعاً. تملّك كل فراغات جسدي وفراغات المدينة حولي، ليتحول العالم في عينيّ إلى أسرار دافئة، أحسُّ معه أنني امرأة ولست ظلاً لحائط جسدي. ظلٌّ يتداخل بكتلة جسده لتتبدد وحشتي في وحدة ظلّي.

كنت أعرف حدود ظلّي في حياته، وكانت هذه الحدود تُغريني، إذ إن كل ما كنت أريده هو «راجل ولا ظلّ حيطة» كما تقول النساء في الأفلام العربية. رجل ليوم واحد في الأسبوع أحتاج فيه لوهم الانتظار والأسرار الغامضة، لرجل يبقى عابراً في حياتي. أما هو، فكل ما كان يريده مني ضعفي، فقد كان يعشق ضعفي ليعيش إحساسه بقوته. يستأنس بكوني سجينة وحدتي. مفتاح سجن جسدي بيده ومفتاح وحدتي بإذنه.

يجنّ جنونه إذا خرجت من البيت لأزور علوية أو ابتسام أو أيّاً من صديقاتي بدون إذنه، مع أني كنت ألتقيه مرة يوم الأحد. الأحد الذي كان يهرب فيه إليّ للهروب من التفاصيل اليومية في حياته مع زوجته، يهرب فيه ليعشق حاجتي إليه أكثر ممّا يعشقني. عباس الذي أحبّ ضعفي وحبي له، أكثر مما أحبّني.

أحبّ الحاجة إليّ ليرسم صورته التي يريدها لنفسه بعينيّ.

كل يوم أحد يمرّ الآن بلا عباس، موحش ومليء بفراغات تدفعني إلى تفاصيل عائلية وزيارات طالما كنت أمقتها وأهرب منها.

أين هي علوية صبح لأطمئنّ إلى أنها لم تقتل أبطالها.

أين هي لأودّعها؟
لا، أريد أولاً أن أودّع ابتسام. فهي بحر ذكرياتي، وإن صار مظلماً بعد زواجها، وإن تكسّرت مياهه وأمواجه، وغدا بعيداً عن يابسة ظلي وعروقي وعمري كله.
سأتصل بها وأقول لها إنني أخيراً حصلت على الفيزا وإنني جاهزةٌ للسفر. سأذهب مباشرة إلى مبنى الجفينور في الحمراء لأحجز في مكتب طيران الشرق الأوسط، في أي طائرة يتسنى لي أن أجد فيها مقعداً شاغراً إلى كندا.
سأقول لها: مريم سترى بيروت، ولأول مرة، من فوق!
ولكن، هل سأقوى على الاقتراب منها وتقبيلها قائلة لها: «بخاطرك» كالعادة، و«أراك قريباً، انتبهي لنفسك»؟ وهل تملك ابتسام وقتاً لتراني؟ هل ستقول لي كعادتها في السنوات الأخيرة:
ـ بكرا، بكرا بحكي معك، وبشوف إذا بقدر شوفك.
وأجيبها كالعادة:
ـ طيّب، طيّب، مثل ما بدّك.
ابتسام أفهمها كما أفهم نفسي، فهي من نوع القطط، تنزوي حين تتألم. وأعرف أني مؤونة ودفء لقلبها. هي النافذة التي رأيت منها الحياة في البداية. كانت تصرخ في وجهي: طفّحتيلي قلبي من ضعفك. ولك كيف بتخلّي خيّك وبيّك يضربوك؟
علوية وابتسام أقنعتاني أن أمشي في مظاهرة نظّمها الطلاب قبل الحرب، لكي أنتصر على ضعفي. خفت وقلت لهما:
ـ بلكي خيّي أو بيّي شافني؟ والله بيقبروني قبر.
ـ ليش بدُّن يقبروك، شو الغلط إنه تعبّري عن رأيك؟ شو خصّن؟
ـ عنّا بالبيت ما في شي إسمه شو خصّن، وعبّر عن رأيي!
أنا الإيشارب بلبسه على راسي قبل ما إنزل من الأوتوبيس حتى ما يضربوني متل ما عملوا هيديك المرة. شدّوني من شعري على الدرج. ومن وقتها صرت إلبسه أول ما إنزل من الأوتوبيس وصير حدّ البيت.
إلا أنهما لم تتركاني بحالي، أقنعتاني بالمشي معهما في المظاهرة، واقتنعت. لم أحسب أن أخي أحمد سيراني في البرج أمام مبنى البرلمان جالسة على الأرض مثلما تجلسان، وأصرخ مثلما تصرخان... للحرية.
دسست جسدي بجانب ابتسام. تأبّطت زندها بيساري وزند شاب بيميني. وسرت بخوف شديد كأني أسير على الخوف نفسه. ثمّ رويداً رويداً تحمّست مع ارتفاع أصوات الهتافات والتهابها، وزادت حماستي. وإذا بكتفيّ المحنيّتين إلى الأمام، خجلاً وخوفاً، تستقيمان، ورأسي يعلو، وصوتي يرتفع، ويزداد ارتفاعاً. شفتاي اللتان بدأتا الهتاف بصوت منخفض تسارعتا. رفعت قبضتي عالياً وأنا أصرخ. صرت أرفعها وأخفضها كما يرفع الكل قبضاتهم ويخفضونها، وأطيّر صوتي في الفضاء كما طار جسدي بعدما صار خفيفاً كنسمة هواء. ووجدت نفسي أصرخ وأصرخ وأصرخ:
ـ يا حرية
كلنا رجالك
يا حرية.
أردّد وراء الهتّاف، وأغنّيها مثلما تُغنّى وبالإيقاع نفسه، بل أريد أن تكون أسرع وأسرع.
لكني ذبت بين الحشود بلمحة بصر، حين وقع نظري على أخي واقفاً يتأملني والغضب يأكل عينيه. يومها «أكلت قتلة» في البيت لا أنساها: كفّ لأني لم أكن أضع الإيشارب على رأسي، وكفّ لأني كنت بالمظاهرة.

أعرف أن ابتسام تحبّني.
كانت أمها لا تعرف عني شيئاً، ولم ترني من قبل. سألتها أمها: ومريم حلوة؟
ـ كتير، مثل القمر.
ـ عن جدّ؟ وسحبة إجريها طويلة؟ وعيونها واسعين؟
ـ كلها بتجنن، مثل القمر.
كنت أرتدي مريول المدرسة الأزرق. نظرت أمها إليّ وصارت تتفحّص ساقيّ المفرشختين عند الركبة، وتتطلّع إلى فمي الذي تدفشه أسناني الملتوية إلى الأمام، وتشيلني بنظراتها من فوق لتحت. ارتبكت ووضعت يديّ في جيبتَيْ مريولي وشعرت بخجل أمام أمها التي بدت وكأنها تتفحّص عروساً لابنها. سألتُ ابتسام: لماذا تنظر إليّ أمك بهذه الطريقة؟
قرصتني من خدي، وقالت: إمي عم تشوف جمالك، قد ما وصفتك إلها.
ضحكت أمها بعد أن خرجتُ، وقالت لابتسام:
ـ كيف مش شايفة إجريها المقوسين، وكدّومة سنانها؟
ضحكت ابتسام وأجابتها أنها لا تعرف بالجمال ولا تفهم، وأنني حلوة مثل القمر.
مثل القمر..!
كنا صغاراً وكنا نغني لبياض الرئيس عبد الناصر الذي كان يخيّل إلينا أن وجهه مرسوم على القمر. حين كنت في الرابعة من عمري ألعب مع الصغار في الحي، بعد أحداث ١٩٥٨، كان أولاد الحيّ يمسكون كلٌّ بخصر الآخر أمامه ليؤلّفوا حلقة كبيرة، يتراقصون في مشيتهم ويتمايلون وهم يغنون، فأدسّ جسدي الصغير بينهم، وأغني مثلما يغنون. يمدّون كلمة «جمال»:
جمال يا محلى مرتو
حلوه متله
بيضا متله، شقرا متله
وشمعون ما أبشع مرتو
سودا متله، سودا متله.
ذات يوم حين جلست العائلة كلها مسمّرة أمام التلفزيون لتستمع إلى عبد الناصر وهو يلقي خطاب التنحّي عن مسؤولياته بعد حرب ٥ حزيران ١٩٦٧، لاحظت للمرة الأولى أن عبد الناصر أسمر وليس أبيض ولا أشقر.
انتبهت لأول مرة لسماره، ولم أكن قد فكرت بالأمر سابقاً، وانتبهت أن شمعون كان أشقر، وزوجته جميلة جداً.

سأتصل بابتسام قبل أن أجهّز كل شيء للسفر، وسواء ودّعتني بعيون جديدة أو بعيون قديمة، سأحضنها وأشدّها بيديّ إلى صدري. وكيف لا أذهب إليها؟ كيف أستطيع ألاّ أضمّها إليّ؟ وهي التي كانت مخبأ حكاياتي وأسراري. تعرف كل قصتي مع علي ومصطفى و... نعم، كانت أول من أخبرته عن علي. التقيت به في بيت ياسمين، في الضاحية الجنوبية. علي كان

قريب زوجها الدكتور كمال، ويقيم في غرفة قريبة من منزلهما، استأجرها ليكمل دراسته الجامعية في بيروت.
نظراته إليّ بعينيه الصغيرتين العميقتين اللتين امتلأتا لحظتها بأسرار الحب أشعلت النار في جسدي.
حين مات علي لم أجد غير ابتسام لتسمعني وأنا أحكي نفسي. صارت كأنها تريد أن تعلّمني المشي من جديد وهي تمسك بيدي لتجعلني أقف وأحبو وأدبدب بجسدي على الأرض لأكتشف عظامي من جديد، بعدما انطحنت عظام علي على الطريق هو وأخوته، ولم ينجُ منهم غير الطفلة الصغيرة بعدما رمتها أمها من الشبّاك قبل أن تدوس الملاّلة الإسرائيلية السيارة التي كانت تقلّهم من الجنوب إلى بيروت.
الجيش الإسرائيلي بدأ هجومه على لبنان عام ١٩٨٢، وبدأت ملاّلاته بالزحف باتجاه الجنوب. لم يكن أحد يعلم أن هذا الهجوم سيكمل طريقه إلى بيروت لاحتلالها.
وإن أفاقت ابتسام من سباتها أو لم تفق ما زلت أحبها.
أحاول أن أفهم حياتها من كلامها القليل الذي صارت تحكيه، والكثير الذي تبلعه وتخفيه وتحاول نسيانه.
تتوه الكلمات في حلقها وأرى بصمتٍ كيف أصبحت مفرداتها قليلة في عالمها الضيق الذي دخلته، أكتشف كيف جفّت بحيرة كلامها كما تجفّف الشمس بحيرة الماء فتتبخّر.
أرى كيف تختلط أسماء أولادها على لسانها حين تناديهم، كما كانت تختلط أسماؤنا على لسان أمي. أرى أنها اقتنعت بأنه ليس من حقها التعبير عن رغبتها مثل أمي، وأنها إن لم تقتنع تتعذب. وهي لا تريد عذاباً أكثر، بل لم تعد تريد العذاب كله. أرى أنها قد تقول لي: ولادي رح يشتاقولك، قبل أن تقول إنها هي ستشتاق لي. أنظر إليها وأتعجّب كيف لا تحكي إلا عمّا يحب زوجها وأولادها وما يكرهونه. لم أعد أسمعها تقول لا أنا ولا نحن. بل لم تعد تقول أبداً «نحن» كما كانت تقول لي في الماضي. كنت يومها أسألها:
ـ مين «نحن»؟
أحياناً كانت تجيب: نحنا الناس.
أو: نحنا الفدائية.
نحنا يللّي حلمنا.
نحنا يللّي ما بدنا..
آخر مرة ذكرت فيها «نحن» قالت «نحنا يللي انهزمنا».
بعدها صار لكلمة «نحن» دلالات أخرى كثيرة صارت تقول أحياناً: نحنا الإسلام، نحنا العرب، نحنا اللبنانية، نحنا بالطايفة، نحنا النسوان، ثمّ أخيراً: نحنا العيلة.
تقولها وتخاف، فتغيّر الكلمة وتغيّر الموضوع كي لا تخاف أكثر. تماماً كما غيّرت الموضوع حين ذهبت إليها وأنا أكاد أجن يوم مجزرة قانا التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية.
ما إن دخلت عتبة بيتها وجلست في غرفة الجلوس وأنا أرتجف، حتى توتّرتْ واصفرّ لون وجهها وتاهت عيناها عني كأنهما رحلتا إلى مكان لا أعرفه. فجأة انتفضت ووقفت فحسبتُ أنها ستقول شيئاً، ستنفجر قهراً أو تصرخ غضباً أو تفتح الباب وتخرج. لكنها وقفت قبالتي وراحت تحدّثني كما لو أنها تهذي، عن متاعبتها مع خدامتها السريلنكية ومع أولادها. أخذت تنتقل من موضوع إلى آخر، تنطّ بحديثها إلى أي كلام، تحكي عن الطبخة كيف احترقت على النار، وكيف «طرطش الزيت» وحرقها...
وفتحت يديها أمامي وهي تهلوس لتريني حرق يديها مع أنهما كانتا ناعمتين بلا حروق:
ـ شوفي إيدي كيف احترقت بالزيت. عبّيت السيارة بنزين «فول» امبارح...
وصمتت قليلاً ثم قالت:
ـ جلال بيجنّن مش هيك؟ جلال ما في منّه.
كانت في هلوستها تهرب من عجزها، وتُسمع نفسها أشياء لم أفهمها.
وابتسام كانت تعرف من عينيّ متى يضرب أبي أمي، وكنت أصف لها كيف يمسكها من شعرها ويشدّها ليضرب رأسها بالحائط. أخبرها حتى عن مدة بكاء أمي، وأصف لها دموعها بالتفصيل، بل كل دمعة من حبل دموعها. ولأكون أكثر دقة في الوصف، كنت أحكي لها إن كانت الدموع تنهمر حبالاً أو كانت تتجمّد في عينيها.
أصف لها كيف كانت أمي تركض كالدجاجة بجسدها المدعبل، وكيف يركض أبي خلفها بجسده النحيل كما يركض كل أعرج على «رجل ونصف» ليمسك بها.
لم أقل لابتسام يوماً، ولا لعلوية، إنني من أسرة سعيدة، فأنا كنت أعتقد أن الحياة داخل البيوت لا تعرف الضحك، أو شيئاً اسمه الحوار، أو حتى الهدوء والصمت. البيت كان بالنسبة لي ضجيجاً وصراخاً وصراع ديكة بين أخوة تصير نظراتهم تقدح ناراً، فيما الصدور تنتفخ وأزرار القمصان تتطاير. كانت القمصان تُخلع وتُرمى على الأرض قبل بدء المعركة، ويصل الأمر أحياناً إلى سحب السكاكين، الأمر الذي كان يجعل أمي تركض لتخفيها. ولكن ما إن يصل الصراع إلى لحظة حامية حتى تصرخ أمي: يا شحاري، راحوا ولادي راحوا.
ترتمي على الأرض وتنقلب عيناها إلى أعلى، وتبدأ حفلة صفع خدّيها الواسعين لتفيق من حالة الإغماء:
ـ «ارْكِضوا، ارْكِضوا جيبوا علبة الكبريت» يصرخ الكل، لحرق رأس أنف أمي بعود الكبريت المشتعل كي تحسّ بلذعة النار وتصحو. أحياناً كانت تفتح عينيها قبل أن يلتذع طرف أنفها بالنار، فنعرف أنها كانت تمثل، وأحياناً كان رأس أنفها يحترق تاركاً آثار الحريق عليه لأيام، وكثيراً ما كانت أسنانها تصطكّ ويجمد فمها، فيما دموعها كانت تغسل خدّيها وتكرج، وهي مستلقية على الأرض، إلى ما تحت أذنيها ورقبتها.
كنت أعتقد أن الضحك يكون خارج البيت فقط. فحين دخلت بيت أهل ابتسام لأول مرة وأنا صغيرة، وشاهدت أمها تضحك تفاجأت. تجمّدت للحظات وأنا أجول بنظري في أرجاء البيت لأتأكد من الأمر. هدوء وجه أمها بابتسامته الخافتة كان يشبه كثيراً صورة وجه الأمّ في كتاب المدرسة. كنت أحسب أن الأمهات يبتسمن فقط أمام عدسة المصوّر، وأنّ الصورة ربما «لا تطلع» بلا ابتسامة، ولولا الابتسامة، ما اختُرعت آلة التصوير.
كنت كلما أعبر من أمام باب محل المصوّر الأرمني جارنا أفادسيان وأتطلّع إلى داخله أجد نفسي أبتسم، فقد وزّعت أمي ابتسامتها أمام عدسته. ردّت منديلها «الجورجيت» الأسود إلى الخلف ووقفت وأخواتي الأكبر مني حولها وهنّ يلبسن قبّعات بدل الإيشاربات، والروج الأحمر القاني يطلي شفاههن، فيما ابتسامات ثغورهن لم تكن تتناسب مع حزن عيونهن، ولا القبعات التي بَدَون فيها كأنهن نجمات سينما أوائل الستينيات.
لكنّ تلك الصورة بالأبيض والأسود سبّبت هجوماً من أبي على أمي ليضربها ويضرب أخواتي بسبب منديلها

الذي ارتدّ إلى الوراء، وقبعاتهن. كان الثمن الذي يدفعه كل جيل من أخواتي البنات يمهّد لبعض التحرّر للجيل التالي. وكان الضرب أحد الأثمان التي دفعناها بالتدرّج حتى وصلنا أنا وأختي مها إلى خلع الإيشارب نهائياً في منتصف السبعينيات.

لكن الطريق أمام ابتسام كان أسهل من طريقي.
حين كانت تلبس ثوباً قصيراً أيام الجامعة، قبل الحرب، كانت ضحكة والدها تتسع لتصير «خلف أذنيه»، وهو يقول لها بإعجاب: «شو هيدا يا بابا، شو هالحلو، فشرت نجلاء فتحي»، فأغار، ليس من ساقيها الجميلتين، وإنما من شخصية أبيها. وحين تقدّم لها في أول طلعتها عريس من العائلة ورفضته، قال لها أخوها الكبير: «غصبن عن راسك بدّك تاخديه». فأجابته: «فشرت، روح تجوّزه إنت». «وشلقته» بسيخ اللحمة المشوية الذي كانت تأكل منه بعد أن حاول أن يهجم عليها ليضربها.
وقف والدها في وجه ابنه وقال: «ولوّ، بدّك تضرب إختك قدّامي؟ هيّ حرة، ويللي بدها ايّاه بتاخده».
تأثرت بموقفها وتشجعت ورفضت أمين، حين تقدّم لخطبتي آنذاك. تمنّيت مثلما تمنّت ابتسام، وحلمت أن أتزوج عن حب، رجلاً من خارج العائلة يختاره قلبي وعقلي. وها أنا أعود اليوم لأتزوج أمين بعدما رفضتُهُ منذ خمسة وعشرين عاماً.
وحدها أمي آنذاك، وقفت إلى جانبي ورفضت أمين. لكن وقوفها كان غامضاً بالنسبة إليّ: هل لأنها تخفي رغبة في أعماقها لأتزوج عن حب دون أن تعترف علانية بذلك، أم لأنني آخر العنقود في بناتها، ولا تريدني أن أتزوج: «راحوا بناتي كلهن، قشّطوني ايّاهن ومعش عندي إلا مريم».

أذكر ما حكيته لعلوية، عن زواج ابتسام، حين كانت لاتزال تسمع، وتريد أن ترى السمك بعينيها.
بل أذكر حين قررت ابتسام الزواج.
تلألأ الدمع من عينيها يوم التقيتها في مقهى في شارع الحمرا، على ذلك التقاطع الذي يجمع العابرين إلى مبنى البنك المركزي وجريدة النهار. كان ذلك المقهى بمثابة علامة فارقة في الشارع، يرتاده رجال أعمال الطبقة الراقية والمثقفون ورجال الصحافة، وذا ساحة واسعة تُرصف الطاولات في باحته الخارجية الواسعة التي تتوسطها نافورة مياه.
في خريف ١٩٨٦ التقيت ابتسام في ذلك المقهى. جلسنا في الساحة الخارجية صباحاً، أثار مياه الشطف على الأرض تضفي على الساحة نظافة وبرودة شهر تشرين المنعشة، مكسبةً المكان مناخاً صافياً ومريحاً؟
لكن ابتسام لم تكن صافية. كان وجهها أشبه بمياه عكرة. دمعت عيناها وهي تحكي، ورائحة اليأس تفوح من كلامها الذي شكا لي عن طعم الوحدة المرّ الذي تشعر به. اليأس من أن تكو ن «in» وليس «out» كما قالت بالإنكليزية. أخبرتني أنها كانت ممددة في غرفتها على السرير مساء اليوم السابق للقائنا. أمها وأبوها في غرفتهما، وهي تشاهد فيلماً عربياً رومنسياً، من الأفلام التي كانت تستخفُّ بها في السابق، أيام كانت ثورية، معتقدةً حينها أن مثل تلك الأفلام عموماً، ليست واقعية ولا ثورية، وغير مفيدة. أيامها كان العالم في نظرها إما أبيض أو أسود.
قالت لي إنها أحسّت بالغصّة وهي تتابع الفيلم العاطفي، وخصوصاً حين اقترب الممثل ووضع يده بحنان على ظهر الممثلة وصار يتطلّع فيها كما لو أنه يرى ضوء الحياة في عينيها. أثارتها تلك العاطفة الرومنسية التي كانت تعتبرها رجعية.
سألتني أسئلة كثيرة بعد أن حكت عن الفيلم، هل رآنا المناضلون مومسات مستوردات في علب ثورية جاهزة ياترى؟ هل حين ينهزم الإنسان، ينهزم في السياسة والحب وفي كل الأحلام؟ لماذا نحن النساء صدّقنا ثم انكسرنا ونحن نحاول أن نكشف مساحات أخرى وفضاءات جديدة لأحلامنا وأجسادنا ومشاعرنا؟ هل حصدنا خيبات مضاعفة عن خيبات الرجال، الذين صدّقنا أنهم متحررون ويريدون الحرية لنا ولهم، وهم في الحقيقة لم يكونوا سوى نماذج لانفصامات نفسية وفكرية وأجساد تحمل في داخلها عصورا مضت، ونماذج كاريكاتورية لهارون الرشيد الثوري؟ هل كنا نحن النساء حقيقيات في أحلامنا، أم كانت لدينا أيضا انفصامات ومشاكل نحملها في أجسادنا المخبأة بثياب الثورة والنضال، ونخّبىء فيها روائح الجواري في كل العصور؟
- لا أفهم، قالت لي.
هل كان كل شيء كذباً؟ لا أفهم، لا أعرف.
أنا لم أكن أكذب، ومتأكدة من أن كثيرين ممن ماتوا أو انهزموا لم يكذبوا. ولكن لماذا انهزمنا؟ لأننا كنا كاذبين، أم لأننا كنا صادقين كل الصدق؟
لا أعرف.
أعرف أنني اليوم وحيدة، قالت. وحيدة كما لم أكن في أي يوم من أيام حياتي. أعرف أنني بحاجة إلى عاطفة كتلك التي شاهدتها، حتى ولو كانت كذبة في فيلم.

لم يكد يمّر شهران على ذلك اللقاء حتى قررت ابتسام الزواج. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، وعاصفة باردة تجتاح البلاد. نقطة المطر «قدّ الكلّة» كما وصفتها خالتي زوجة أبي وهي تكوّز ثلاثة من أصابع يدها لتشرح حجم نقطة المطر. رنّ جرس الهاتف أكثر من مرة. كانت في غرفتي أنسخ «تايورا» عن مجلة «بوردا» أعجبني. كانت تلك الوسيلة توفّر عليّ المال وتشغلني في أوقات فراغي المملّة، كي أبدو أمام عباس في ثوب أنيق جديد كل مرة أقابله فيها.
تركت وقتها الورقة البيضاء والتصميم تحتها مفروشين على الارض، واضعةً المقص فوقهما وركضت إلى الهاتف. تفاجأت بصوت ابتسام الدافىء، وفهمت أن لديها ما تقوله لي بعدما تأتأت قليلا. كان الظلام قاسياً كحجر حين فتحت باب المنزل وتوجّهت نحو الدرج المعتم للقاء ابتسام في مقهى المودكا في شارع الحمراء. صوت الرعد والمطر في أذنيّ، والسؤال عمّا في فم ابتسام من ماء يشغلني.
جلسنا في الطابق العلوي للمقهى أمام طاولة محاذية للواجهة الزجاجية المطلّة على تقاطع الطريق. قالت لي إنها اتفقت مع جلال على الزواج، بعدما ظل يطرح عليها ذلك الأمر مراراً وتكراراً لفترة طويلة من الزمن، دون أن يحظى منها بجواب. واختصرت لي رأيها، بعدما تطلّعت من زجاج المقهى إلى السيارات العابرة وهي تدفىء يديها بأكمام كنزتها البيضاء. قالت إنه رجل طيب ويحبها، والأهم انهما اتفقا على الزواج بقرار عقلاني لبناء حياة مشتركة، يقرران فيها «سوا» كل الامور المتعلقة بحياتهما معاً.
راحت الأسئلة تكرج على لسانها وتدور في عينيها وهي تقول لي: أليست العائلة أهم من الحب، بعدما راح الحب، وبعدما انهزمنا في كل شيء؟ هل أبقى«آوت» يامريم؟ خارج كل الدوائر، خارج حتى حياتي؟ وماذا افعل إن لم أتزوج؟ هل أملك المقدرة بعد على أن أحب مرة أخرى، وأخوض علاقة تفضي بي إلى مجهول آخر؟
لا. لا أستطيع، أجابت نفسها. سأحبّ من أتزوج، فأنا تعبة. أحتاج إلى رجل يتقبّلني ويحبّني بصدق ويحتويني. جلال ينتظر جواباً منذ سنوات، لن أحب غيره. لن أحب إلا من سأتزوج.
لم أستطع أن أستفهم من ابتسام أكثر. ولكني حاولت، وسألتها:
- بس مش جلال شي، وإنت شي؟
- لأ، ليش؟ جلال متعلّم وبيحبّ الحياة وكمان عنده تجربة سياسية.
- وكريم، بعده بيعنيلك شي؟
- بفضّل ما إحكي بالموضوع لإني بتأذّى كتير، وبعدين خلص، كريم انتهى من حياتي وما بدّي إتطلع لورا.
صفاء ذهنها وضوء بشرتها الذي بدا وكأنه انعكاس لشروق شمس الأمل في عينيها، وانعكاس كنزتها البيضاء على وجهها جعلت غبار الخوف الكثير المتكوّم على عينيّ وقلبي يتلاشى لأتنفس براحة وأرى بملء عينيّ صورة ابتسام امامي تستعيد قوامها لتقف على أرض ثابتة، لا على أحلام من غبار، لكنني خفت. خفت من أن ترى في

جلال صورة الرجل المنقذ من ظلال أوهام الحب، والفارس الذي سيرفعها إلى فرس السعادة، ثم يخّيب أملها.

بدا لي حين تعرفت إليه أنه يخلو من أيّ رقّة رومانسية أعرف أن ابتسام تبحث عنهما في الرجل الذي تهواه. حتى حين حدّثني عن عشقه للحياة والسهر والمطاعم، بدا لي وكأنه يتذوّق الحياة كتذوّقه لطبخة عرمرمية من الكوسى المحشي وورق العنب بالكوارع محضّرة بالسمن الكثيف، وهمه الوحيد أن يلتهم من الطبخة ما يستطيع. أما عشق ابتسام للحياة، فقد كان مختلفا تماماً. تبحث عن دور في حياة تتنفّسها وتتذوّقها وتعيشها كعصفورة سمراء تزقزق للدنيا كي تغني الدنيا لها. وهي برغم صلابتها الخارجية ومواقفها العنيدة أحياناً، تتميز بطفولة شاعرية، وبجوانب دافئة في شخصيتها تجعلها كطائر يغرّد في يد الرجل حين تعشقه ويعشقها بشفافية، كما عشقها كريم.

أذكر يوم بدأت قصة غرامها به أوائل الحرب في الجامعة، كأن «ابتسام» أخرى ولدت أمامي آنذاك، أو أن«ابتسام» أخرى كانت نائمة فيها فاستفاقت وباتت مغمّسة بأنوثة تفيض من عينيها وصوتها وجسدها. أذكرها في ذلك الجينز الأزرق الملاصق لجسدها، والقميص الأبيض المفتوح الأزرار من الأعلى، والكنزة السوداء تعقدها على رقبتها.

آنذاك صارت تلمع عيناها، وتتغير مشيتها لتصير مشية العاشقة أمام المعشوق. صارت وكأنها تحسّ بكل جزء من جسدها حين يتطلع إليها كريم، وجهها يتوهج ونظراتها لا تقوى على الاستقرار في مكان.

كانت تنتظرنا في كافيتيريا كلية التربية حيث تدرس هي، تنتظر أن نحضر أنا وكريم من كلية الحقوق، حيث كنا ندرس معاً، وتغضب مني وتثور حين نتأخر عن اللحاق بها. كانت تتركنا جالسين أمام الطاولة وتتوجه إلى«جوك بوكس» الأغاني القديم المنزوي في أحد جوانب الكافيتيريا. تقف أمامه، ترفع خصلات شعرها التي تعود وتهبط على وجهها، تحتار بين أغاني فيروز، أيّ واحدة تختار لتعبّر عن احاسيسها، تختار في أكثر الأحيان «يا حلو شو بخاف إني ضيّعك» تعيدها أكثر من مرة، وعيناها تقولان له كم تخاف أن تضيّعه، ثم تختار «شايف البحر شو كبير، كبير البحر بحبّك»، وعيناها تقولان كم تحبّه.

كنت أرى وهج ذلك الحب يضيء عينيها، وبلّور خديها يتوهّج دفئاً وهي تقف أمام كريم في باحة الكلية، تلعب يدها بزرّ قميصه، تتطلّع في عينيه بغنج لم أعهده فيها وهي تقول له: بحبك، بحبك. يبتسم كريم إبتسامة عريضة وهو يميل برأسه إليّ ويقول لي: ليكي صاحبتك شو مجنونة.

- إي، إي مجنونة ونصّ، ورح ضل مجنونة فيك. تقول وهي ترفع إصبعها في وجهه وتمشي.

وحين قابلتها في مقهى المودكا بعدها بسنوات لتخبرني عن قرارها. بالزواج من جلال، شعرت أن إحساسها بالأشياء التي تنقص في الدنيا قد ازداد، وأنا الآن أشعر معها بهذا النقصان. أحسست أن كل جغرافية أحلامها تغّيرت وتقلّصت مع ذلك النقصان ومع طعم المرارة على طرف لسانها، بل في كل كيانها. صوتها وهي تسأل كان يعلو وينخفض، مع أن الطاولات كلها حولنا كانت خالية، تخفض صوتها كأنها تريد له أن يكون أقرب إلى أذنيها، لتسمع أسئلتها وهي تقول لي:

- خلص، كلّه خلص، أنا خلصت، بس ليش؟ قولك ليش كل شي راح، القضايا والأحلام والحب والعواطف؟ قولك كل شيء كذب وإلاّ لا؟ بس والله حاولنا بصدق، ليش انهزمنا، ليش خسرنا كل شي؟ يللي ماتوا ماتوا عن صحيح، مش عن كذب، ياترى فشلنا من الكذب والاّ من الحقيقة؟ وقت منهزم، لازم نقبل، ووقت منقبل معناتُه إنُه تغيرنا، ما هيك؟

لم أجب عن أي سؤال من أسئلتها، كنت فقط أفكر كيف أن ابتسام حاولت أن تغيّر العالم فتغيرت هي، وهي تحكي لي كيف أن الأشياء خلصت، والفراغ يأكلها وهي لا تستطيع أن تعيش بلا دور.

ثم أخبرتني أنها قررت الزواج من جلال، وبالتأكيد ذهبتُ إلى عرسها.

اتفق جلال وأهلها أن ينتظروا ريثما ينتهي شهر محرّم لأن الزواج فيه غير مستحب.

طلبت أمها خمسة عشر ألف دولار مهراً لها فوافق، ووافقت ابتسام.

وقفت ابتسام في يوم عرسها كحمامة سمراء بفستانها الأبيض، وطرحتها البيضاء تغطّي وجهها ونظراتها المنخفضة إلى الأرض أمام الشيخ، بعدما نادت خالتها: تستّروا يا بنات ويا ستّات، إجا الشيخ. اللواتي لم يستطعن ستر رؤوسهن وأكتافهم العارية توارين عن الأبصار فاسحات في المجال أمام الشيخ للدخول بثقة ليعقد القرآن. وأم ابتسام كفكفت دموعها يوم عرس إبنتها وقالت: هاي الحياة يا بنتي، بيربّي الواحد اولاده وبيكبّرن للدنيا مش لنفسه، لغيره.

هل أختنق العصفور في قفص صدرها فسلّمت حكاياتنا ومصائرنا لحارس النوم الأبدي بعدما نامت في سرير الغياب؟

كيف أعرف؟

لو كانت على قيد الحياة لعثرتُ على حكايتي على الأقل.

أعرف علوية صبح، كما تعرفها مريم. فرغم غموضها الكثير الذي لا أفهمه، أنا متأكدة أنها تعيش الحياة وتكتشفها بالكتابة. إن لم تكتب كلمة «هواء» لا تتنفس. وإن لم تكتب كلمة «وردة» لن تتذكر أن في الحياة ورداً. تكتب لتتذكّر رائحتها وأوراقها. لتعرف ما الذي يجعلها تموت، اليد التي تمتد لتقطفها، أم الأنف الذي شمّها، أم أنها ستموت إن بقيت في الجبال بعزلتها بعيدة وحدها؟!

اشتمّت ورد ذكرياتي وراحت، دون أن تشهد أسرار موت الورد.

أخاف ألا تكون اشتمّت شيئاً مما حكيته لها، حين جاءتني لتطمئنّ على سعادتي في حياتي الجديدة مع جلال، وكأنها تريد ان تعثر على سعادة ولو في مصير إحدى شخصيات روايتها.

حكيت لها كل شيء كي تكون حكايتي قريبة مني، بعدما

بَعُدتْ حياتي عني، ولتصير علوية أيضاً قريبة مني
أسراري إليّ، وقرب حكايتي مني، ولكن يبدو أنني كنت
أحكي لنفسي.
هكذا صرت.
وهذا ربما ما أخاف علوية، وجعلها تهرب مني. تضيع في
حكايتي التي لم تفهمها وهي تستمع إلى أسئلتي
وأجوبتي التي ترتسم في عينيها خوفاً.
بل ربما ما أخافها هو أنها سمعت وفهمت جيدا ما قلته.
وكتبتْ حكايتي من زمان، ورمتها في أدراجها. وحين
أخرجت الأوراق من تلك الأدراج لتعيد كتابة الرواية،
وجدتُ أنّ اسمي يلتبس مع أسماء جديدة غريبة،
فصارت لي أسماء كثيرة، لا أدري من أين أتت بها.
كنت وهي تعيد قراءة المسودّة أجنّ وأتألم وهي تترك
قصتي تتوه في الأسماء، فأطلّ بإصبعي من صفحات
مسوّدتها ومن طيّات ذاكرتها التي ملأها النسيان وغباره
وأقول لها:
ـ أنا ابتسام ياعلوية. إنها حكايتي أنا. حكايتي التي حكيتها
لك، فلماذا تتوهين عن اسمي وتستبدلينه باسماء أخرى؟
كانت تجيبني:
ـ ولكن حكايتك ليست حكايتك وحدك. أنا سمعت الكلام
نفسه من هدى وجمانة وسعاد وسميحة ومن أسماء
كثيرة أخرى لا أذكرها.
أين علوية، وكيف اختفت؟ وهل فهمت حكايتي بين
الحكايات في الشبيهات الماضيات والأتيات.
كيف ستفهم ما حكيته لها عن جلال وهي لم تتزوج، كما
لا يمكن أن أفهم ألم الوحدة وثمنها بلا زواج. لن تفهم
كيف أنهض أحياناً من نومي مذعورة، فأجلس في السرير
وأنظر إلى جلال وهو نائم بجانبي وشخيره يصل إلى
الغرف، وأسأل نفسي بعد زواج دام أكثر من خمس
عشرة سنة:
ـ مين هيدا الرجّال يللي نايم حدّي ولا بعرفه ولا
بيعرفني؟ خايفة بعد خمسين سنة زواج إسأل حالي نفس
الأسئلة وما أعرف ولا جواب، مثل أسئلة النسوان يللي
حكوا لعلوية حكايتي نفسها. بس أنا ما كان بدّي
هيك. ليش صار هيك؟
لم تفهم علوية مدى ألم الأسئلة التي أسألها لنفسي، كما
لم أفهم الصدمة الأولى التي صدمني إياها جلال بعد
الزواج، وبدأت معها الأسئلة.
ـ أنا بحبّ البنت يللي متلك، صريحة وعندا شخصية،
وبدها شي من هالدنيا، اخترتك لأنه بدنا نكون بالحياة
سوا بكل شي. سوا منفكّر، وسوا بالرأي وسوا منشتغل.

يومها فرحت لما قاله لي، وطارت بي الدنيا، وطار قلبي من
الفرح.
لكني لم أفهم خوف جلال من صدقي الذي جعل وسواس
الشك بي يُحيل حياتي إلى جحيم، رغم أني أحببته
واخترته بملء إرادتي. وكلما كنت أعتقد أن سعادتي به
لأنه فهمني وفهمته، كانت تحدث أشياء أكتشف من
خلالها أنني لم أفهمه ولم يفهمني.

لا أدري ما الذي انكسر بي، هل كسرني جلال أم
أحلامي، أم حملي وأولادي، أم الأيام والتقدم في العمر، أم
الهزائم كلها؟ فلم أعد قادرة على أن أبدأ من جديد، لا في
زيح أسود، ولا في زيح أبيض.
وحين قالت لي ياسمين:
ـ ما لازم تقولي شي قدّام جوزك، الرجّال مش كل شي
بينقال له. نظرت إليها وهي تمسح العرق عن جبهتها عند
غطاء شعرها بالحجاب الرماديّ الذي تعقده بدبوس من
جهة اليمين، لم أجد نفسي إلا وأنا أجيبها:
ـ قولك، نحن ببلاد عايشة كلها بالكذب، وشو بدّو الواحد
يقاوم ليقاوم؟
حتى صور ذكرياتي مزّقها.

كنت يومها في البيت، تربعت على السرير وفتحت
الألبومات، أتفرّج على صورٍ قديمة، تلك، بدوت فيها أنا
ومريم وعلوية أثناء رحلة قمنا بها أيام الجامعة.
دخل عليّ جلال، نظر إلى الصور الموزّعة على السرير،
وجلس إلى جانبي يتفحّصها صورة صورة.
ثم فجأة، انقلب الهدوء إلى غضب ممزوج بالشك
والاستهزاء. وقف وقال لي بعدما مزّق الصور بعصبية
مجنونة.
ـ قلت لك ميّة مرة حياتك السابقة ما عاد خصّك فيها، هلّق
إنت مرتي ومحسوبة عليّ، وإذا بشوفك عم تحكي مع
مريم أو علوية، أنا بفرجيك.
ـ ليش شو عاملين لك علوية ومريم؟
ـ لو علوية آدمية بتقعد بالقهاوي مع الرجال وبتشرب
قهوة وبتقرا الجريدة؟ علوية بتكتب بالمجلات عن الحب
ومش فارق معا، وفيك تقولي لي مريم شو حياتا؟ كيف
بتعيش؟ مين بتحب؟ معقول ما يكون عندا حدا بحياتا؟
لم أعرف ماذا أفعل، أضحك أم أبكي؟ سكتّ ولم أجب.
ـ ليش ساكته؟ قولي شي.
ـ ولا شي.
ـ لا، إحكي، سكوتك بيخوّفني أكثر من كلامك، وما بعرف
شو بيكون براسك وبشو بتفكري إنت وساكته.

أكثر من مرّة حاولت أن أطلب الطلاق لكنه كان يهدّدني
بحرماني من أولادي.
فقط أتساءل: من هو هذا الرجل الذي ينام بجانبي لا
أعرفه ولا يعرفني؟
أضيع بين الوجوه، وتلتبس عليّ الأسماء فتختلط
ببعضها. يصير لمريم أسماء كثيرة، ولابتسام، وللكل.
وأضيع في أصواتهم وأنا أخلط بين أسمائهم.
أسأل نفسي: ترى من هي مريم؟ هل حقاً أعرفها
واستمعت إلى حكايتها؟ من هي ياسمين، وبمن تذكّرني؟
هل صحيح مات أبو يوسف، والمسرحي جنّ أو مات أو
اختفى؟ لماذا أسميته زهيراً، مع أن اسمه ليس زهيراً،
اسمه الحقيقي لم يؤكّده لي أحد، بعدما تاه بين الأسماء.
ما شأني أن أعرف من عاش ومن تغيّر ومن مات ومن
جنّ؟ يكفيني المجانين حولي. كيف غلبوني وصدّقتهم
لأجنّ معهم، وأضيع ولا أميّز بين الحكايات. أتساءل عن
التي أجهضت في الحرب: مريم أم ابتسام، ياسمين أم أنا،
أم نساء ورجال أعرفهم ولا أعرفهم؟
كلّنا أجهضنا جنيناً أو حلماً أو ذكريات. المدينة أجهضت
المدينة، والشوارع أجهضت الشوارع، والأبنية أجهضت
الجدران. القرى أجهضت القرى، والبشر أجهضوا
حياتهم. منهم من أجهض بلده أو صمته أو بئره الذي
حفره لتكون مساحة وطنه لا تتعدّى جسده أو حدود
فمه.
كلّنا أجهضنا، حتى أنا، أجهضت على الأقل يدي لكي لا

أكتب.
لم أعد أعرف شيئاً.
أعود إلى غرفتي بعد أن أكون فصلتها وفصلتهم كلّهم عنّي، لكنّ ابتسام تعود إليّ بصمتها وصوتها المتقطّع الذي أسمعه كما أسمع صرير أسنانها وصوت أكلها للحمها. أسمع بحّة صوت مريم، أسمعها تطرق باب البيت لتسألني إذا كنت أسمح لها أن تستعمل بيتي وسريري.
ثمّ أعود وأسمع من جديد صوت مريم وهي تسألني: هل أقول لعباس إنني مسافرة إلى الأبد، وإن رائحة السنوات الطويلة معه صارت كرائحة الكفتة في أنفي؟
أرى وأسمع كل ذلك أمامي في الليل وأنا أتأمل جدران الغرفة والستارة والظلمة، بل أحتاج أحياناً للحظات طويلة كي أدرك حين أستيقظ صباحاً أنني في غرفتي ولست في غرفة مريم أو ابتسام. أتأكّد أنني في غرفتي وأنني أنا، ثمّ أدرك تماماً أنني أنا، بعدما تغيّرت دنياي ونسيت من أنا، وأضعت ذكرياتي وأصدقائي وتهت عما كتبته لسنوات طويلة، بل تهت عن اسمي وعنواني.
ما شأني أنا كي يعجّوا برأسي ويقلقوا راحتي؟ فأنا أريد أن أراقب الشجر ولون البحر، وأريد أن أنصت إلى سكينة أحلم بها، لا يهمّني إلا متى ستكبر الأشجار التي زُرعت في الشارع الذي انتقلت للعيش فيه، في مدينة بلا شجر. الأشجار ما زالت صغيرة، وتحتاج لوقت طويل كي تكبر وتظلل الرصيف لأستظلّ بها وأنا أمشي، فأفرح بأوراقها وبالهواء الذي يلاعبها. أقف تحتها لأتفيّأ من الشمس وأنا أعبر الطريق، لكنها تحتاج لوقت طويل كي تكبر.
فرحت حين زرعت البلدية تلك الأشجار، وأخبرت صديقتي أنني فرحت بالشجيرات، وقلت لها:
ـ قولك بيكبروا قبل ما موت وإنبسط فيهن؟ انشا الله يكبروا قبل ما روح.
أنا لا أريد غير ذلك.
لكني، للحقّ، ندمت لأنني صدّقتهم، ندمت لكثرة ما أزعجوني وهم يرافقونني أينما سرت وكيفما اتجهت. هل أكتب لأتأكد من موتي، أو اختفائي كزهير، أم لأطردهم من رأسي وأرتاح من ثقل دمهم؟ يكفيني الخوف الذي خفته من أبي يوسف في ذلك الصباح.
كنت أسير في شارع الحمراء لأصل إلى مكتبي، لم أكن أرى شيئاً أو أسمع أحداً على الطريق، إذ كنت أستمع لأحد الأبطال يحدّثني في رأسي. وحين وصلت إلى مفترق مقهى الويمبي لأتجه يميناً صوب مكتبي، لا أدري كيف تخيّلت أبا يوسف يقف على الزاوية حاملاً ساطوره بيديه خلف ظهره ينتظرني ليضربني به. لمحته، لمح البرق، واقفاً يهمهم وينتظرني بين المارة ويتلصّص على الزاوية لأطلّ بجسدي أمامه. هربت وأنا أرتجف خوفاً منه ومن ساطوره، آخذةً طريقاً آخر كي أختفي من أمامه، بعدما رأيته هارباً من المقبرة وآثار التراب على وجهه وقميصه وبنطاله وهو يقول لي:
ـ مين قلّك إنُّه أنا متت؟ ومين أذَنكْ تكتبي إنُّه أنا هرهرت بعد ما ماتت أم يوسف؟ يا كذّابة يا منافقة. منين بتجيبي هالقصص؟ ولك أنا لو ما موّتيني بالكتاب كنت تجوزّت أحلى بنت، بنت بنوت وبنت عشرين سنة، ولو كنت ابن سبعين. شو أحسن منّي الحاج حسين، والحاج خليل، وهنّي ولا شي قدّامي؟ شو بشكي أنا؟ أنا بالمصاري يللي بيبعتلي هنّي إبني من السعودية عالقليلة بعمل زواج متعة مش بس مع أحلى أرملة أو مطلقة، كمان مع أحلى صبيّة. بعشر دولارات إذا بدّي بعمل زواج متعة. ليك هالكذب والنفاق، والله لأقصف عمرك، أنا بفرجيك.
هربت منه وأنا أتلفّت ورائي خوفاً منه ومن ساطوره.
كنت أودّ أن أقول له لو لم يختفِ عن ناظريّ:
ـ أنا ما بعرفك ولا أنا اللي موتّك. روح قول لمريم وللكل إنّه أكيد رح إرتكب جريمة إذا عرفتكن، وإقتلكن دفعة واحدة وألّف رواية كيف قتلتكن، وليش عم دوّر على وجوهكن وأساميكن بالطريق.
بس ما قتّلتكن قبل؟ لأنه الكاتب بس ينسى ذكريات أبطاله، وما بيعرفها ولا بيكتبها، ما بيكون عم يقتّل أبطاله كل يوم؟
الـ«تيكيت» حاضر. وفرحة خالتي زوجة أبي حاضرة في عينيها لتركي البيت وهجرتي إلى كندا. تنظر إليّ بطرف عينها وتزمّ شفتها السفلى وهي تشرح أمامي لأختها التي زارتها عمّا ستفعله بغرفتي بعد مغادرتي المنزل.
ـ ولا شي رح حطّ فيها. ببعت على بيت الضيعة أغراض الأوضة، وبعملها قعدة عربية الحج بحبّ القعدة عالأرض.
وأبي لا يردّ، ولا يركض خلفها ليضربها كما كان يفعل مع أمي، فالحاجّة خالتي، زوجته الدلّوعة أصبى منه بكثير وتفهم بالرجال، إذ إنّ أبي هو الزوج الرابع لها. كلما تزوّجت أرمل لتخدمه بالحلال ومات، يدبّر لها أخوها أرمل آخر ليخفّف عبئها عنه وليسترها، ويطعمها ويُؤويها ويدلّلها.
أغراضي وضّبتها في حقيبتين كافيتين لما سآخذه معي، اشتريتهما جديدتين، واخترتهما من اللون الأزرق لتتناسبا مع التايور الذي سأرتديه يوم سفري، كي أبدو

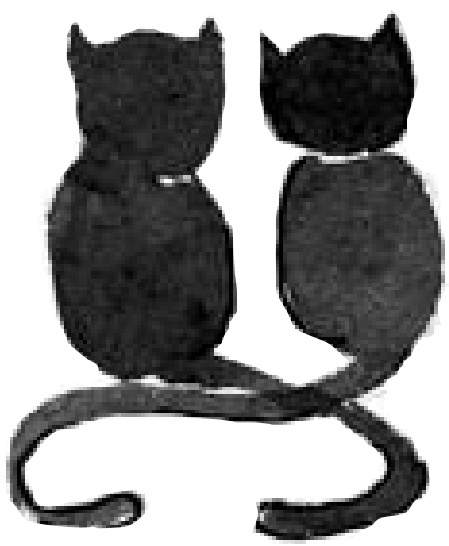

أنيقة في عيني أمين حين يستقبلني في المطار لدى وصولي إلى كندا، ويبتسم في وجهي كما كان يبتسم لي منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ابتسامته آنذاك كانت ترتبك على شفتيه حين كنت أرفض أن أنظر إلى وجهه وابتسامته كي يفهم أنني أرفض الزواج منه، بل الزواج من أي رجل من العائلة، وأنا أحلم أن أطير وأرفرف بجناحيّ خارجها. عشت على وهم انتظار من يهبني أجنحة للطيران معه خارج سرب العائلة، وها أنا أعود لأطير إلى كندا، لأطير هناك تحت أجنحة أمين التي هربت منها أول صباي. أمين الذي كانت أجنحة الفرح تطير من عينيه كلما رآني، وأتطاير خوفاً من ضغط إخوتي وأهلي عليّ للزواج منه .لكن أمين الهادىء العاقل احترم خياري ولم يتقدّم رسمياً للزواج مني، بناءً على طلبي، بعد أن قال لي قبل أن يسافر:

ـ متل ما بدّك، بس إذا غيّرتِ رأيك بعد ما سافر اكتبي لي وقولي لي.

ولكني صمتُّ فرحاً حين عرض عليّ الزواج ثانية بعدما قلت له:

ـ مثل ما بدّك، بس إذا غيّرت رأيك بعد ماتسافر، تلفن لي.

في إحدى ليالي الصيف، وعلى شرفة منزلهم في القرية، عاد وطلب يدي للمرة الثانية وقبلت. الهواء المنعش ذاته، ومشهد الكروم من الشرفة لم يتغيّر فيه شيء سوى عدد المنازل والفيلاّت التي كثرت في القرى، وتغيرت الكراسي التي جلسنا عليها. كرسيّان من البلاستيك الأبيض بدل كراسي الخشب والقشّ البُنيّ. وعادت أغنية «بعيد عنّك حياتي عذاب» لأم كلثوم، التي أسمعني إياها قبل أن يسافر من زمان، تدور في رأسي، وأنا أتطلّع إلى وجهه الذي تغيّر وبدا تعباً وأكبر من عمره الفعلي بكثير، بعدما ماتت زوجته الكندية من أصل أميركي منذ أربع سنوات، تاركة له صبييّن صارا في عمر المراهقة وابنة في العاشرة من عمرها.

وافقت دون أن أفكّر باي شيء، بعد أن وضع أمين يده فوق يدي، وابتسم إبتسامة لم أشعر بثقلها على شفتيه ولا على قلبي، وهو يقول لي بصوته الهادىء:

ـ مشتاق لك.

أجبته وأنا أتطلّع إلى خطوط الزمن حول عينيه، وكأني أريد أن أندسّ فيها وأختبىء:

ـ وأنا كمان.

وربما كنت مشتاقة لكل ذلك الزمن الذي راح.

بل كدت أن اتيبّس فرحاً حين عرض عليّ الزواج بعد تلك السنين، وكأنه يريد أن يتقبّله ماضيه الذي بَعُدَ عنه حين رحل إلى كندا.

هو الوحيد الذي تقبّلني وأحبنّي كما أحبنّي علي. الفرق أني حلمت بعلي وعشقته وعشقت هدوءه المختلف عن هدوء أمين.

هدوء علي كان يشبه هدوء البحر الممتلىء، بوهج الغضب والقوة في أعماقه التي تتفجّر أحلاماً ثائرة. أما هدوء أمين فيشبه هدوء بحيرة صغيرة عمقها بلا غضب ولا احتمالات ولا أحلام سوى عدم تجاوز يابستها وسيبقى أمين حاملا في نفسه ماء بحيرته الصغيرة الهادئة، حتى ولو قطع البحار البعيدة، فاليابسة الكثيرة ستظلّ تحاصر بحيرته أينما ذهبت فيه ومعه.

وأنا ما عدت أحلم بأكثر من بحيرة صغيرة هادئة وأنا هاربة من بحر الحب والذكريات مع عباس.

لكنني لم أصمت حين عرض عليّ أمين الزواج، بل كدت أتيبسّ فرحاً بحلم الهجرة لأهجر ذكرياتي وظلّي الذي لم يعد ظلاً لأحد.

فرح أبي وخالتي وإخوتي كلهم، لأنني لم أعد امرأة غامضة، كوني خارج سرب رجل، ولأنني قد أتحجّب كما تحجّبت زوجة أمين السابقة.

أمين لم يطلب منها ذلك، بل كان قلبه يتراقص فرحاً مع تراقص خصلات شعرها الكستنائي وتراقص رموشها الشقر التي كانت تطليها بالماسكرا البنّية قبل أن تتحجّب. أصرت على الحجاب بعدما هدتها إليه قريبات أمين ونسوة القرية أثناء قدومها في الصيف للاصطياف معه في لبنان.

وبكت جميع نسوة القرية اللواتي حضرن دفنها وتحدثّن عن إيمانها وهن معجبات بها، تهز الواحدة منهن رأسها وتقول باستغراب:

بِش...إي واللّه

ياهيك المسلمة

تكون يا بلا. وا

طلعت ملكة أكثر

من الملك.

والكل قال إعجاباً

بِش...

زوجة أمين التي لم

تكن تقطع ولا«فرض

صلاة»، شكلت حجابها

بالدبوس كما نصحتها

المحجبات، وسررن

لأنها سألتهن بعربيتها

الركيكة:

ـ الدبوس بشكله

عاليمين والاّ

عالشمال؟شو

مستحبّ اكثر؟

ونصحتها النسوة بشكل الدبوس تحت ذقنها إذا أرادت، كي لا «يزحط» الغطاء عن رأسها، لأنه لو رأى رجل غريب شعرة واحدة من شعرها ستعلّق منها في يوم القيامة، بل ستُحرق في القبر.

وعيناها كانتا تتسعان وتتجمّدان خوفاً وهي تستمع لإحداهنّ، التي من عادتها لكز كتف من تحكيه بيدها طوال الوقت، فاحمرّ كتف الكندية المسكينة من الألم وهي تستمع إلى حكاية إحدى الكافرات وما جرى لها في القبر:

ـ ويا ستنا يللي ما إنت، في وحدة كانت كافرة، وكل العالم بتعرف إنها كافرة، لا بتغطّي راسا ولا بتصلي ولا بتصوم. ولّمن مرة انفتح قبرا، مدري كيف بعد كم يوم من دفنها، لقوا شعرها محروق، وإجريها محروقين، وكل شيء فيها عورة لازم تخبيّه وكانت تبيّنه محروق وأسود مثل الفحم، وشو بدّي قلّك، يمّ، فحمة سودا ومحروقة،

وكمان تحت باطيها اللي كانت تكشفّهن.
وتضيف الجالسة بقربها، وهي تلكزها في كتفها الآخر:
ـ أي، كيف لكان، الوحدة مش بس بتتعلّق بشعرا يللي كشّفته، عيونا بيتفقّروا إذا اتطلعت برجّال غريب غير جوزا، ولمن الوحدة بتنزل عالقبر وبيجوا الملايكة ليحاسبوها، وبيوقف أنكر وأنكير من هون ومن هون، بيقولوا للمّيت: يا عبد الله قوم وحّد اللّه، بيقوم الميّت من قبره يقرا الشهادة، بيضرب راسه ببلاطة القبر على جبينه. يالطيف القبر ما أصعبه وما أصعب عذابه.
وجئن لها بكتاب «عذاب القبر» وهي لا تعرف القراءة بالعربية، نظرت إلى غلاف الكتاب فرأت قبرا فيه جثّة محروقة فصارت ترتعد، وتقززّت عيناها خوفاً، كما تقززّت وهي تستمع إليهن وتموت رعباً من حكايات القبر.
حتى إبنتها البالغة من العمر تسع سنوات، بكت وقالت لها:
ـ أنا كمان لازم متلك إتحجّب أحسن ما إنحرق وإتعلّق من شعري. ظلت ترتجف طوال الليل وهي تبكي وتدسّ جسدها الصغير في حضن أمها وتقول:
ـ مامي، مابدّي إنحرق بالنار.
صارت تتوضّأ مثلما علّمتها إحدى قريبات زوجها، وهي تلكزها وتقول لها:
ـ أنا بلاقي إنه الوضوء من الإبريق أضمن للطهارة. بس تشوفي الميّ فاضت فوق البريق يكون طهر وما عاد نجس. ومش ضروري تبربسي بصوت عالي متل ما قلّنا الشيخ، إنوي بقلبك إنتِ وعم تتطهّري، وألله بيسمع وبيعرف النوايا وخفايا القلوب.
لكنها خافت ألاّ تبربس، وصارت تنوي بصوت عالٍ مثلما تفعل ياسمين. تحكي بصوت مرتفع طوال الوقت في البيت، حتى تسمعها الملائكة. إلاّ أنّ ياسمين رغم بربستها لم تكن مثلها، تمشي رافعة يديها بعدما تتوضّأ لتصلّي، حتى لا تتنجسّ إذا لمست الحائط أو خشب الباب أو كتف أحد أولادها، وإلا ستضطر إلى الوضوء من جديد.
بعدما فتك بزوجة أمين مرض السرطان في كندا، أوصت بدفنها في القرية في الجنوب، رغم وجود مقابر إسلامية هناك. أتى أمين بجثمانها والحزن يملأ عينيه عليها. وقف أمام قبرها صامتاً وهو يتطلّع إليه فيما أصوات النساء حوله في أذنيه تقول:
ـ نيّالها على هالموتة، ونيّال جوزا شو إله أجر عند ربّه لأنها أسلمت، ونيّالها، عالجنة بثيابا بلا حساب.
وهو لايرد. مشى خلف نعشها الى المقبرة بعدما غسّلنها وطهّرنها، وتخيّلنها محمولة إلى القبر رافعة يديها حتى لا تلمسا خشب التابوت وتتنجّسا، رافعة جسدها عن أرض التابوت لتواجه ربها طاهرة، وهي تحلم بالجنة في عينيها المغلقتين، فيما نسوة القرية يحسدنها ويحلمن أن يُحملن مثلها على النعوش، ولو بأكفانهن وليس بثيابهن، مباشرة إلى أبواب الجنة وليس إلى قبورهن، واختصاراً للمسافة واستعجالاً، هروباً وخوفا من عذاب القبر.

لكن ياسمين لا أدري ممّ صارت تخاف؟
حين حكيت لها عن زوجة أمين ومخاوفها قبل موتها، وعن خوفي وأنا أطأ عتبة جديدة قد تكون الأخيرة في دنياي في بلاد الهجرة، وعن خوفي من الدنيا وأنا أرى اختلال ميزان الضوء والعتمة فيها، لم أعرف ما إذا فهمت عليّ أم لا.

مساحة البياض حول حجر عينيها البنيّتين الواسعتين المشروحتين كلوزتين امتلأت بضباب رمادي كثيف غطّى حجرهما بطبقة شفافة رمادية كلون لباسها الشرعي الرمادي الدائم. أما جفناها المبطّنان، فرأيتهما حجابين لحميين فوق لون الخوف الرمادي. وحين أجابتني وأنا أحكي لها عن الخوف، كان لصوتها لون رمادي يتصاعد من فمها وهي تقول لي:
ـ لازم يا مريم الواحد يخاف، وإلا كيف بدّو يحس بالأمان؟ الدنيا بتخوّف ومليانة وحوش، بيصير الواحد يفكّر بالآخرة ليحسّ بالامان.
لم أفهم من أين أتت ياسمين بكل ذلك الخوف من الدنيا، بل بكل ذلك الخوف من أن تكون مختلفة عمّن حولها. وهي التي طالما حلمت في الماضي بالتمرد والاختلاف بصوتها ولهجتها وأحلامها وتفكيرها وجسدها، عن دنيا أمها وعائلتها والحيّ الذي كانت تسكنه وهي صغيرة؟
لماذا خافت من أحلامها الصغيرة وصارت تراها وكأنها «عورة» مثلما ترى جسدها كله.
تقف أمامي وتعدّد لي عوراتها على أصابعها: الصوت، تحت الدينين، اللسان، العينين، لا. لا، يمكن الكاحل لا. لا أعرف لماذا صارت تخاف من الدنيا كلها، كأنها انقلبت إلى الضفّة الأخرى من الخوف.
صار حنك ياسمين يرتجف وتبرز عضلات وجهها المستكين دوماً، وتتطاير نظرات عنيفة وغاضبة من عينيها إن رأت حتى إبتسامة لامرأة تختلف عن ابتسامتها هي، أو شاهدت مشية أو ضحكة أو ربما دمعة تختلف عن مشيتها أو ضحكتها أو دمعتها. تجمد عضلات وجهها في تكتلات تتحرّك صعوداً وهبوطاً إن أحسّت بشهوة للدنيا في جسد أيّ امرأة عابرة قربها، بل وربما تتمنّى لو تسحب روح الابتسامة من ثغر أي امرأة تبتسم بين الرجال وفي الشارع، إن لم تشبه ابتسامتها المنكسرة.
كانت ياسمين أول صباها تخاف ألاّ ترى نفسها وتكتشفها بعيداً عن التشابه مع الآخرين في مرآة عائلتها ومرآة الحي الذي تسكنه في محلّة البسطة التحتا الملاصقة لمحلة الخندق الغميق، تدبّ نفسها في النار لتعثر على لغة ومرآة للذات، وعلى حياة مختلفة. يصفرّ ويحمر وجهها وتكاد تختنق وهي تحكي إن عثر لسانها على كلمة لفظتها أمها، أو إن اتكأت في كلامها على تعبير أو مثل أطلقته أمها فحفظته. تتوقف شفتاها في منتصف الكلمة، وتجحظ عيناها وهي تبلع النصف الاخر للكلمة التي تنزلق سهواً من فمها، فتغيّر لهجتها وتبحث عن مرادف لها لا تستعمله والدتها، ثم تختم جملتها بدل الأمثال بأقوال ثوريين مشهورين في العالم بحثت عن اختلافها فيهم.
لم تخف ياسمين يوماً من التشابه مع بيئتها الشعبية

خجلاً أو تنكّراً لها، وإنما بحثت عن اختلافها حلماً بتغيير بيئتها التي تنتمي إليها، وهي تتخيّل حياة أخرى لأولاد الحي الذين تراهم يلعبون بفقرهم في الشارع، تتفلفل قهراً وهي تحلم أن يلعبوا في حدائق غنّاء مليئة بالألعاب، غير تلك الحديقة التي يلعبون فيها ولعبت فيها وهي صغيرة، حديقة قريبة من منزلها، أول طلعة برج أبي حيدر، وليس فيها سوى نافورة ماء وحيدة، لم تتزحلق فيها إلا على«الزحليطه» الوحيدة، وهي بلاطة الدرج التي تشبه بلاطة دقّ الكبة بملمسها الناعم.

لم تحلم ياسمين يوماً أيام الجامعة أن تتزوج رجلاً يخلّصها من الفقر على طريقة الأفلام العربية، وإنما حلمت أن تقلّد المناضلات والثوريات في العالم وفي الكتب التي قرأتها.

لكن أفكارها كانت تلحق دائماً بعواطفها. وحين عشقت الدكتور كامل العائد من باريس أوائل الحرب، لم يعد يعجبها عجب الثوريين كلهم، مثله. ياسمين وقتها لم تكن تخاف من شيء، إلاّ من اختلافها عن الحبيب، وهي تبحث عن اختلافها عن بنات وأبناء الحيّ، إلا اختلاف فقدان عذريتها. ولذلك ورغم تعدد علاقاتها أيام الجامعة كانت سعادتها لا تُوصف حين تخرّجت بشهادتين: شهادة ليسانس في الكيمياء، وشهادة نيل شرف المحافظة على عذريتّها.

ولكن الدكتور كامل لم يكذب حين قال لها يوم زواجهما وهي تعتزّ بعذريتها:

ـ هيدا حكي خرابيط. شو البنت مش إنسانة مثل الشبّ، شو هالكذب والنفاق.

ولم يكذب في حلمه للنضال من أجل الفقراء، وآمن أنه تخصصّ في الطب ليطّببهم في المستوصفات الشعبية، وليس عشقاً في مرتبة اجتماعية أو مادية.

تبدّلت ياسمين منذ أواخر أيام الحرب، بعدما صار اختلافها عن الدكتور كامل يخيفها كما يخيفها أن تكون مرفوضة من الذين حلمت أن يتغّيروا، فغيّروها بدل أن تغيّرهم، وصارت تقلّدهم بعدما حلمت طويلاً أن يقلّدوها.

حين شاهدتها بالثوب الرمادي الشرعي أواخر ايام الحرب، وبغطاء رأسها الرمادي لأول مرة، لم أعرفها، رأيتها ياسمين أخرى لها رائحة الرماد بدل رائحة الياسمين التي كانت تفوح منها، صارت تحدثني عن الخوف من الدنيا، وعن الأمان في الأخرة.

قطعتُ حديثها وقلت لها:

ـ بس نحنا النسوان كأن ما عملنا شي، من أول القرن لهلّق معقول نرجع نفيّق عقارب مخبّاية تحت هالحجاب. عقارب مخبّية بجسمنا صرلا نايمة خمستالاف سنة، وشلحنا الحجاب لنطلع من اوكارها من تحت تراب جسمنا يللي مخبّاية تحته وعم تعقوص فيه؟

صارت تستشهد بأقوال المؤمنين وبالسترة، كما كانت تستشهد بأقوال الثوريين وبالنضال.

يا لطيف يا مريم، إذا عايشة بين ناس حولك مختلفين عنّك بكل شي وما قادرة تغيريهن شو بِخوّف، وبحسّسِك إنك غريبة عن كل شي ومرفوضة.

ـ بس كل عمرك كنت عم تفتشي عن الاختلاف.

ـ بس ما عاد إلُه محل، وصرت حس إني لحالي. حتى علاقتي بجوزي كنت خاف منها بعد ما تغيّر. كنت خاف مش بس من كامل، أنا وماشية بالشارع قبل ما أتحجّب، صرت خاف من الكلمة يللي أسمعها، ومن التطليعة لجسمي. خاف حتى من دعساتي عالأرض لأنها مش متل دعساتهن.

ـ ما عم بفهم.

ـ مافيك تفهمي إنّه صعب الواحد يحس إنه غريب عن بيئته وأهله واللي عايش معهن وعن الناس اللي هويّ منن وحواليه ورافضينه؟ ولا بيفهم عليهن ولا بيفهموا عليه، ولا لغته ولا لبسه ولا تفكيره متلن؟ كان الخوف رح ياكلني لأنه ما عاد إلي غيرن. حسّيت إنه لازم خبّي حالي مثل هالنسوان اللي حولي. وبسّ تحجّبت وحسّيت جسمي مخبّى متلن وما في شي مبيّن منّي، حسيت ساعتها بالأمان والراحة.

ـ بس منشان هيك تحجّبت؟

ـ لا، الخوف من الدنيا حَسّسني بأمان وأنا عم فكّر بالآخرة. الدنيا مليانة وحوش والكبير بياكل الصغير، وكلّه بيعتدي على كلّه، فأحسن شي يتخبّى الواحد ليحسّ بالأمان، هيك هيك عم تاكلنا الدنيا، كمان تطليعات الناس لجسمنا بدها تاكلنا؟ أنا صرت خاف من الأذية ومن الناس. تعبت يامريم، تعبت قد ماحسيّت الواحد ما عاد إلُه ولا حق. حاولت غيّر الناس أو إحكيهن عن حقّن ماقدرت، انهزمت. ومن قهري على كل حق راح حسيّت إنه لازم حافظ عالقليلة على جسمي وصرت فكّر إنه أنا بس لازم شوفه وبحق لي شوفه بس بدّي، وبعدين بعد هالإحساس بالإهانات كلها، وإحساسي بعدم احترام المرا باي شيء، قلت يابنت إذا ما احترموني على القليلة بيحترموا ثيابي.

ـ وحقّك صار بس إنه جسمك مايبين إلا إلك؟ هيدا حقّك بس؟

ذات يوم، أول الغروب، أخذتها بسيارتي هي وأولادها إلى سوق البرغوت وسط البلد لنتمشّى، ابنتها البالغة الواحدة والعشرين تمسك بأيدي إخوتها الأصغر وتسير خلفنا. مشينا صامتين، فيما ياسمين تتطلع إلى جدران وواجهات الأبنية المرقّمة في وسط المدينة، والتي بدت لي مدينة أخرى جديدة غير تلك المدينة التي عرفتها قليلاً قبل الحرب.

كأنه وسط مدينة جديدة بلا ذكريات، شوارع وأبنية تطلّ على بحر لم يكن لها منفذ عليه في الماضي، مدينة لا تذكّر بماضيها الذي اقتلعته الحرب، وصار وسط مدينة أخرى ينتظر أناساً آخرين.

صارت ياسمين تتطلّع إلى البنات والنساء السافرات «المزلطات» الكاشفات عن سيقانهن وبطونهن وهنّ يتمشّين في الطرقات وكأنهن يمشين من نقطة صفر جديدة لمدينة تعود إلى الصفر، أو كأنهن يمشين في فراغ فضاء الشارع وليس على أرضه. صارت تنظر إلى وجوهن وأجسامهن بارتباك شديد يشير إلى غربتها عن المكان وعن البنات والنساء السائرات في الشوارع، تماماً كما كانت تشعر بغربتها عن المحجّبات أوائل طلّتها على الحياة ثم التفتت إليّ فجأة قبل أن نصل إلى المقهى لتناول الأركيلة، وقالت بتوتّر:

ـ يللّه نمشي ونرجع، حاسّة إنه هالشوارع وهالمدينة مابعرفها ولا بتعرفني، ماعاد فيّي إمشي بشوارع وبين ناس لا بشبههن ولا بيشبهوني.

هل خافت من حكاية عائلة أم طلال، فهربت واختفت؟ وكيف لا أحكي لها عن أم طلال، وبيننا عشرة عمر؟ جارتنا الباب بالباب، قلت لعلوية وعدت وقلت للدكتور زهير. وصحن الطعام أحياناً تتقاسمه، بل تتقاسم خبز الألم دائماً وخبز الضحك القليل أحياناً أخرى.

حتى لو لم أكن أريد، فالجيرة دفعتني مراراً، ما إن تدقّ أم طلال بابي لتطلب النجدة ليلاً ونهاراً، لأن ألبيّ، إمّا لنقل «زينة» ابنتها إلى المستشفى، أو أبي طلال رحمه الله، أو المرحوم حموّدي أيضا، أو لنقل أم طلال إلى المخفر أو إلى دير الصليب، آخر أيام حياة حموّدي.

كانت كلّما أتت علوية لزيارتي تطلب مني أن ندخل إلى منزل أم طلال لنشرب القهوة عندها، كي تستمع إليها في غرفة الجلوس التي حوّلتها إلى مايشبه غرفة الحكايات في بيتها وحياتها.

غريب، قريب، جار، بعيد، كله لا فرق عند أم طلال، تعيد أسطوانة حياتها للداخل والخارج، حاضرة دائماً للكلام. تلفّ الحكايات في فمها بترتيب كما تلفّ ورف العنب بين يديها. تنقر جراحها وهي تفتح النار تحتها لتغلي وتفور في فمها ووجهها المكتنز المتورّد دائماً.

حتى وهي تقمّع اللوبيا، تميل براسها يميناً ويساراً وهي تحكي، ملتذة بكلامها وكأنها تقمّع جراحها وحكاياتها.

نسوة البناية يتجمّعن في بيتها صباحاً، ويحكين مشاكلهن لبعضهن، تأتي الواحدة منهن للمشاركة في الصبحية، حاملةً الطبخة التي تريد تحضيرها، على صينية.

يبدأ تحضير الطعام، وتنفتح الشهيّة على الكلام بأصوات لا تزال تحمل أثار النعاس والنوم، حاملة أدق التفاصيل التي جرت في منزلها في الليلة السابقة، مع زوجها وأولادها.

وأبو طلال في غرفته الصغيرة بجانب المطبخ يسمع بأذنيه ماتحكي عنه أم طلال.

وأبو طلال يضرب وجهه وهو ممدّد على السرير، كلما سمعها تضرب حمّودي حين يأتي «مسطل». ويضرب على وجهه قهراً على ابنته كلّما «وقعت بالنقطة». ودمعته الناشفة معلّقة في عينيه، وشعره المجعّد الأسود أصبح «كوكة بيضاء» كما تصفه أم طلال. فمنذ أن خرج من المستشفى آخر مرة، في منتصف الثمانينيات، وهو شبه معاق، صامت طوال الوقت، ويبكي على سريره.

لم يعد يردّ على شتائم أم طلال له، وعلى هتّها إياه لأنها تقوم بخدمته، وهي تقول له: شو قاعد تعمل بالبيت، ما تقوم تدوّر على شغل. بدّك قرص مقرّص من دقن معرّص.

ينظر إليها نظرة متألمة ويقول لها:

ـ ولك آخ على الدنيا، ما أصعب الواحد لمن بيتمنّن، والله المتل ماقال شي كذب: لا تدخل بيت ظنّين وما تاكل عيش منّين، المتل بيقول هيك. بس إنت عم تاكلي من جنى عمري، وهلّق عم تهتّيني؟ أنا يللي كنت إشتغل وأعطيك، وشبّح من هون وهون لأرضيك. هلّق عم تهتّيني بتعبي؟

وأبو طلال ينتظر آخرته. بل لا ينتظر شيئاً، منذ أن صارت بدلته العسكرية وقبعته معلّقتين على الحائط منذ أوائل الحرب كأنهما ذكرى، وبعدما سلّم دراجته النارية للدولة.

لفلف بدلته كأنها ذكرى.

كل شيء صار كأنه ذكرى أمام عينيه، تلوح في ذاكرته دراجته التي كان يجوب بها الشوارع، ثم يغمض عينيه على تلك الذكرى كي لاتضيع منه.

كان الأفندي أبو طلال ... الأفندي الذي وظفه البيك في الدرك أوائل الستينيات، وصار يخافه كل سائقي السيارات والزعران حين كان يجوب الشوارع على دراجته للقيام بدوريات أمنية.

نسبة السكري في دمه تعلو، وحلمه بالموت يعلو. انتظره فلم يأته، بل رآه بعيداً عنه بُعد قبعته وبذلته اللتين يراهما هاربتين منه وهو يركض خلفهما ولا يصل إليهما، فاراد أن يذهب هو إليه:

ـ يللي مابيجي لعندك، حمول حالك وروح إنت لعنده.

ونامت زينة على جسد أبيها المسجّى، فهو الوحيد الذي كان يشعر بها وبعذابها، نام أبو طلال نومته الأخيرة على سريره لليلة واحدة.

دوّى صوت القرآن في البيت لأسبوع، فيما حمّودي لم يعرف بموت أبيه إلا بعد خروجه من السجن الذي أدخلته أم طلال إليه كأمل أخير لها بنجاته وشفائه، بعدما لفّت على البصّارين وعلى الأطباء أملاً بشفاء ابنتها، ولكن عبثاً.

زينة، التي أسمتها أم طلال بهذا الاسم لتكون زينة البيت الوحيدة التي لم تنجب غيرها.

جسدها الرقيق، يرتجف كله، حين تتجمّد نظراتها في عينيها العسلّيتين ما إن تأتيها النوبة أو«الكريزة» وتصرخ خائفة:

ـ إجو لـيّ الجناني وعم يضربوني.

تصرخ وتتلّوى:

ـ أخ يا بيّي ويا إمي، دخيلكن تلبّسوني وعم يضربوني.

أسمع صراخ أم طلال وابنتها ويسمعهما كل الجيران، بعد أن تفتح أم طلال الباب وتصرخ:

ـ دخيلكن تعوا ساعدوني، إجوا الجناني لبنتي وعم يضربوها.

تهجم أم طلال، ويهجم الجيران كلهم ويبدأون ضرب زينة بالصرامي على جسدها وراسها ورقبتها، وهي تتلقّى ضرباتهم كالصوص الذي يُجلد بينهم. وهم يعتقدون أنهم يضربون الجان الذي تلبّس جسدها كي يخرج منها، بعد أن يتألم من الضرب ويهرب، تاركاً جسدها بحاله. وهي تصرخ من ألم ضرب الجان لها، وألم ضرب الأحذية التي تلسع جسدها لسعاً.

ما إن تأتيها «الساعة» بين فترة وأخرى، حتى تحاول أم طلال أن تحتضنها وتمسك بها ولكن عبثاً: تركض زينة أمام أمها باندفاع هائل، ويكاد لا يستطيع عشرة رجال الإمساك بها وتهدئتها.

ترتجف وتصرخ:

ـ حلّوا عني، حاج تضربوني.

أخرج من بيتهم وأخاف، ما إن أدخل غرفتي وأبدأ أحكي لوحدي، أن اسمع أصواتاً تتلبّسني ولا أعرفها، أو أعرفها فأخاف أكثر. ولكني لا أسمع سوى صوتي ولا أرى أمام عينيّ في سريري سوى صورتها وهي مذعورة ترتجف، فيما عينا حمّودي ترتجفان كما تصطك ركبتاه، خوفاً عليها وهو يراهم يضربونها:

ـ حرام إختي، ألله يخلّيكن حلّوا عنها.

هذا كل مايجرؤ على قوله وهو يتأتى خوفاً ويترنح يميناً ويساراً. لكن أم طلال غالباً ما تهجم عليه لتضربه بصرمايتها لأنه بقي منزوياً وخائفا ومتألماً لضرب زينة ولم يهجم ليضربها مثلهم:

ـ يا كلب، نحنا عم نضرب الجناني يللي تلبّست إختك ليطلعوا منها، وإنت واقف عم تتفرّج مثل الأهبل، شو إنت بلا رحمة؟

ـ أنا بلا رحمة، والاّ إنتو يللي عم تضربوها بلا رحمة؟

ـ عم نضرب إختك ياحمار، والاّ عم نضرب الجناني ليطلعوا منها؟ ياخيخة، ياجبان، يللي بلا عاطفة على إختك، وما بتفهم ومابتضرب معنا. تقول وهي تضربه بشحّاطتها، فيما يرفع حمّودي يديه ليحمي وجهه من ضرباتها وهو يترنّح ويتمايل بجسده الذي صار نحيلاً كالعصا.

ـ إنتوا يللي بلا عاطفة وبلا رحمة، رح اتموتوها شي يوم لأختي من ضرب الصرامي.

لكن حمّودي لم يمت من الضرب، ولا من «أوفردون» كاد يوقف قلبه أكثر من مرة، غاب فيها عن الوعي لثمان وأربعين ساعة في المستشفى، بعدما وجدته طاويا جسده على الدرج ونائماً كالميت.

مات حمّودي في دير الصليب وحيداً، وغطّت الراهبة وجهه بالشرشف الأبيض وبكت عليه، بكت لموته وحيداً دون أن تكون أمه بجانبه، احتضنته حين بكى، قبل أن يموت وقال لها:

ـ الله يخلّيك بدّي شوف إمي قبل ماموت.

والراهبة لا تعرف رقم هاتفها ولا كيف تتصّل بها، والطرقات مقطوعة بين المنطقتين، وروحه تنقطع عن الحياة، ونداءاته لها ليرى أمه لم تنقطع على لسانه.

غطّت وجهه بالشرشف الأبيض بعدما قال لها:

ـ غطّيني بردان.

حضنته الراهبة المرضة وأمسكت بيديه الباردتين ولم تتركهما إلا حين أحسّت بهما تتحوّلان إلى كتلتين من الثلج

بين كفيها، وحين رأت عينيه تتحولاّن إلى غيمة من الموت. أغمضت عينيه بيديها، وصلّت، وبكت على وحدته في موته، وعلى الكلمة الوحيدة التي طلب منها أن تقولها لأمه:

ـ سامحيني يا إمي، ولو؟ ليش قلبك ما حسّك إنه موت لتجي تشوفيني.

حموّدي مات.

وقبل أن يموت، أغمض عينيه وهو مستلق في حضن الراهبة.

منذ أشهر فقط، استلقى حموّدي على قطعة كرتون قذرة وجدها بجانبه، واضعاً يديه تحت راسه لينام خلف حائط أنقاض بناية متهدّمة مقابل نصب ساحة الشهداء، ناظراً إلى السماء من السقف المفتوح على خراب الأبنية، وعلى الشجر العالي النابت بين الأنقاض، والنباتات الغريبة التي وجدت منبتاً لها في فتحات الجدران المتهدّمة.

جال ببصره على الظلام المعشعش في الخراب، وهو يلامس شعيرات صدره السوداء وكأنه يلامس ظلام المدينة الصاعد من صدره.

كأن ذلك المكان الذي يلتجىء إليه هو آخر مأوى لروحه وجسده اللذين لا يجد لهما مأوى إلا في وسط البلد المتلىء بالأنقاض وذكريات الحرب، والشاهد الأكبر على الدمار.

ذلك الخراب أمامه، لايشعره بالغربة التي يشعر بها حين يمشي في الأمكنة والشوارع الأخرى من المدينة حيث يشعر أنها تلفظه خارجها، وخارج الزمان والمكان، وتلفظ جسده الذي صار غريباً. جسده الذي لفظ قوته حتى على المشي على الرصيف إلاّ وهو يترنّح ليسقط أرضاً أكثر من مرة.

وعلى ضوء القمر في ساحة الشهداء استلقى خلف جدار متهدّم. يرى المدينة وهو يتطلّع إليها وإلى النصب التذكاري للشهداء كأنها مدينة ظلال، مدينة مخرّبة مثل خراب جسده، لم يقطع تأمله سوى ضحكات أصدقائه وأصوات الكلاب والقطط المخيفة، التي بلغت أحجاماً أضعاف أحجام كلاب وقطط الشوارع المأهولة، بسبب ماأكلته من جيف وجثث أيام الحرب، ورائحة البراز التي تحملها نسمات الليل تختلط بالرائحة نفسها في جسده وثيابه التي لم يبدّلها منذ أيام..

بكت المرضة وهي تخبر أم طلال بموته، وقالت لها إنها صلّبت عليه وحضنته وهو يواجه الموت وحيداً ويسأل عن حضن أمه.

بكت أم طلال ولبست الأسود و«عملت» له أشعاراً تندبه، واشترت سلسلة ذهبية وضعت فيها صورته وعلّقتها في رقبتها.

لكنها بعد مضيّ بضعة أشهر على وفاته، طرقت الباب وفي وجهها خبر سريع تريد أن تطلعني عليه، لأن الأسرار في بطنها تحوم على قلبها. دخلت، وحام السرّ على وجهها ليخرج من فمها وهي تلكزني في كتفي، كعادتها حين تحكي، وقالت:

ـ اسكتي اسكتي يا مريم، مش الأكراد أخذوا الجنسية خلص؟

ـ وشو يعني؟

ضحكت وقالت لي:

ـ تقوليش لحدا، في واحد كردي ما كان معه جنسية، وكنت عم فكّر بيعُه تذكرة حموّدي لأنه من عمره، وأنا ما عملتلّه بعد شهادة وفاة. كنت رح إقبض خمستالاف دولار حقها، بس يللي خلاّني غيّر رأيي إنه بيصير إبني، وبيصير بدّو يورث مع طلال وزينة، على كل حال منيح يللي مابعته أياها مش هيك؟

وأضافت وهي تضحك قائلة: إسّا بعد ناقص تاجر بالميتين!

وتوقّفت من ضحكها وهي تمسح عرق خديها بيديها وتقول:

ـ سامحني يا إبني، أللّه يرحمك، الشيطان بيوسوس بالراس مرّات، كنت رح تاجر بموتك يامعتّر، بس لأ، انظلمت بحياتك وبديّ تاجر بموتك؟ على كل حال الجنسية الأميركية بس روح لعند طلال بتسوى الدنيا، ولو بيعطوني مال الدنيا ما بيع موتك.

كأنني في ذهولي كنت أسمع خطأ.

وضعت يديّ على رأسي وأذنيّ كي لا أسمع شيئاً.

أين امّحت علوية مع امّحاء حكاياتنا في الماء والوحل؟

أعرف أنني، حين أعثر عليها لأودّعها، سأقول لها: علمّي ما امّحى ياعلوية.

لا.لست أنا من يقول ذلك، وإنما زهير قال وكتب.

لملم جيرانُه أوراق مسرحيته المبعثرة في بيته، والسابحة في الماء والوحل ولون دمه، بعد اختفائه، فوجدوا جملةً واحدة تتردد واقعةً بحروفها فوق الكلمات المحوة: علّمي ما امّحى ياعلوية.

وصاروا يسألون بعضهم بحشرية: من هي علوية؟ وهل تكون هي من أخفته أو قتلته، أو محت مسرحيته؟ وإلا لماذا يطلب منها أن تعترف بالأسرار التي لا تخافها أم طلال؟

أذكر أنني ذات يوم بعدما خرجنا من بيت أم طلال، وأغلقت الباب خلفنا، وقفت علوية على سفرة الدرج وتطلعت إليّ بذهول وهي تسألني:

ـ ليش إم طلال ما عندا ستر مغطّى، وبتخاف من أسرارها، وبتجنّ إذا ما حكت حكاياتها للناس؟

صمتُ قليلاً ثم أجبتها:

ـ يمكن الحكي والأسرار عند الناس، إلها علاقة كمان بالسُلطة. يمكن يللي بيحبّ يخبّي الحكي، بتهمّه صورته قدّام الآخرين، وسُلطته بتكون بغموضه. ويللي بيكونوا برّات السُلطة وبرّات الدنيا كلها، بيسبحوا بهالدني بحكاياتهن.

أزاحت شعرها الى الوراء قبل أن تهبط الدرج، وقالت:

ـ مابعرف. هيدا مش مهم، انسيه. المهم إني إسمع. بس مابعرف إذا الناس بتحكي حكاياتنا صح والأ بتنفّي منها بس يللي بتحب تصدقه وما بتخاف منّه.

استمعت علوية لأم طلال ولي ولكل أبطال الرواية.

لكن الكاتب المسرحي«زهير»، لا أدري ما الذي سمعه وما الذي فهمه. حين أخبرته حكايات أم طلال وقف وانتفض بطوله قائلاً لي:

ـ كذب، كلّه كذب، هالحكايات كلها كذب. أكيد علوية بتخبّريها حكاية تانية بتخبيّها عليّ، وبتعرّفني على ناس غير يللي بتعرفيها عليهن، حتى أنا أكتب عن أبطال سلبيّين وهي تكتب عن أبطال إيجابيّين.

ـ شو يعني؟

ـ أنا بشوف إنُّه حياة الناس غير هيك. الناس معتّرين، وفي مؤامرة على طول عليهن حتى يضلّوا بالفقر وبالجهل. ماحدا عم يخلّيهن يتنفّسوا ليفوتوا على الدنيا من بوّابة ثانية. لأ، كلّه كذب. ليش خبرّتيني عن إم طلال مثلاً، وما خبرّتيني عن إختا رفيقة، يللي بتشتغل وبتخبز عالصاج ببيتا ليل نهار خبز مرقوق لتبيعن وماتحتاج تمد إيدا لحدا. وكل يوم بتتخانق مع إبنها يللي قاعد بأوضته ومسكّر عليه الباب ليحضّر أرواح ويسألن، ويعمل خيرة وإستخارة إذا بيضهر والاّ لا؟ وكل يوم تقول له:

ـ ولك يا إبني شو جنيت؟ عايش بالخرابيط؟ قوم روح شوف شي معمل صبابيط اشتغل فيه، بيتمنوا عليك. ولك درزتك للصبّاط بالمعمل كانت تخلّي الصبّاط يطلع كأنه جايي من إيطاليا، وأحسن. قوم يا إبني وحّد اللّه. الشغل هو الحياة والدنيا، وألله قال: حيّ على الصلاة حيّ على خير العمل.

ليش بتخبريني حكاية إم طلال وما بتخبريني حكاية رفيقة؟ وليش علوية عم تتآمر عليّ وبدها أياني إكتب عن إشيا غير يللي بدها تكتبها؟ نحن مش هيك اتفقنا.

وعبثاً حاولت إقناعه أن علوية تكتب عن الأشخاص أنفسهم في مسرحيته، وأن حكاية رفيقة لا تعرفها، وإن عرفتها فإنها ستكتبها في رواية أخرى.

ـ لا إنت وعلوية وكل الأبطال متآمرين عليّ. على كل حال، أنا كل هالحكايات مابتهمنّي بتهمنّي قضايا الإنسان والحرية، وبيهمنّي مين يللي خطّط للحرب، وليش صارت؟ وليش وصلنا لنهدم بلدنا، ووصلنا للبهدلة يللي وصلنالها؟

ـ والله يازهير هيدا يللي بعرف إحكيه، وهاي ذكرياتي. لا أنا ولا أبطال الرواية ولا علوية بعتقد فينا نفيدك. يمكن إنت غلطت بالعنوان. يمكن كان لازم تفتش عن أبطال مسرحيتك على ذوقك. نحن يللي منعرفه حكينالك إياه. شوف ابطال غيرنا يحكولك الحكايات يللي بدّك تسمعها.

راح هو الآخر واختفى، خرج من الرواية بعدما قال لعلوية إن خيالها ضحل، وإن المسرحية التي يريد أن يكتبها يجب أن تلاحق خيال الحرب وتستوعبها، احتجّ ونظر شزراً إليها وهو يخرج من أوراق الرواية قائلاً لها.

ـ صدقيني، حتى لو بدّي إكتب عن نفس الشخصيات، أكيد مابكتب هيك. إنت مش بس متآمرة عليّ وبدّك تختاري لي إسمع يللي بتسمعيه وشوف يللي بتشوفيه، ومش بس عم ترسمي مؤامرة لجنّ بالكتاب، إنت متآمرة كمان على البيئة الشعبية. ويمكن المخابرات الدولية دزّتك عليّ لتجنّنيني وصير إكتب يللي هنّي بدهن إياه.

في البداية ظنت علوية أنه يمزح، ضاع حين خلط المسرح بالحياة، كما تضيع هي نفسها أحياناً وتخلط بين الحياة والحكايات التي تكتبها، بل تقلّد أحياناً، دون ان تعي، الشخصيات التي تخلقها في رأسها.

وأنا اعتقدت أن زهيرا يمزح حين قال لي:

ـ ماتعودي تحكي شي قدّام علوية، حتى سلام ماتسلّمي عليها، بدها تجنّني بالرواية، وإنت مدري شو بدها تعمل بمصيرك كمان. كل الاتفاق يللي اتفقناه بالأول طلع كذب.

ـ طيّب إحكي إشيا ثانية عنّي وعن نفس الأبطال.

ـ لا، هيدي حكايات كلها ما بتهمنّي وما إلها طعمه.

راح الدكتور زهير يفتش عن مسرحية الحرب، وصار حذراً مني ومن علوية، بل كان أحياناً حين نلتقي به على الرصيف، يعبر إلى الرصيف الآخر خوفاً منّا.

راح بعد ماحكيت وحكينا كلنا، وهو لايسمع سوى صوت الحرب في راسه. نحكي والكلمات التي يسمعها ترتطم باذنيه وتسقط أرضاً. وأذناه بعدما استمع إلينا صارتا أشبه بجدارين مثقوبين كجدران الأبنية المثقوبة بالرصاص. كأن كل حكاياتنا رصاصات تخترق طبلتي أذنيه وتثقبهما.

أخذ يكتب ليفهم الحرب، لكنني لم أفهم ما الذي جنّنه. صار لا يحكي مع أحد، يحكي نفسه في بيته وحيداً، ويحكي نفسه في عيادته.

كانت كتب المسرح تنتشر في عيادته ومكتبه، وينتهز فرصة خلوّ العيادة من الزبائن ليقرأ مسرحية، فإذا بالكتب من المخابرات الدولية والاستخبارات تملأ عيادته. كانت قراءاته حول المسرح أكثر من قراءاته حول الطب، كثيراً ما كان يستمع إلى مرضاه يحكون له حكاياتهم، فصار يخاف حتى من مرضاه.

لم يعد يستقبل أحداً، فلربما كانوا مدسوسين من المخابرات الدولية ليعرفوا بماذا يفكر، فيكتبوا بلاغات عنه.

وكان يرى في علوية الخطر الأولى على نفسه.

اتصل بها مساء ذات يوم وقال لها:

ـ شو عم تعملي؟

ـ ما شي، عم أكتب يللي سمعته أنا ويّاك اليوم من مريم.

ـ شو رأيك تجي تتعشّي معي؟ أنا عم أطبخ فاصوليا غير شكل.

ـ عن جد؟ ومين عم يطبخلك ياها؟

ـ أنا. تعي شوفي طبخي. أنا عازمك.

ـ يلّله جايي.

وراحت. كانت الساعة العاشرة مساءً، ظنت أنها ستتناقش معه حول أبطال المسرحية والرواية وهما يأكلان الفاصولياء.

وصلت بسيارتها إلى بيته، قرب كنيسة سانت ريتا في منطقة راس بيروت. دقت جرس بابه في الطابق الأرضي للمبنى، ففتح لها وهو ممسك بسكّين كبيرة في يد، وبراس ثوم في اليد الأخرى.

ضحكت وقالت له:

ـ شو؟ عم تقشّر ثوم؟

ـ إي. فوتي.

ـ والفاصوليا بيحطّولها ثوم؟

- إي شو لكان؟
- إي تعي شوفي، الحقيني عالمطبخ.
لحقته إلى المطبخ وشاركته بتقشير الثوم. ثم طبّق الطبخة ووضعها على النار وهما يتحدثات ويضحكان، فيما هو يضع «الوزرة» على صدره كي لا يتّسخ قميصه. وبعدما انتهيا من تطبيق الفاصوليا، خلع الوزرة وقال لها:
- شو رأيك نرتاح قبل ما تستوي الطبخة؟
- عال، ما في مانع.
وضع أمامها على طاولة صغيرة صحن صغير من الفستق، وجلست قبالته على الكنبة في صالون بيته الصغير. دار الحديث حول أمور عديدة، ثم فجأة توقّف زهير عن الضحك، وتجّهم وجهه، بل بدا وكأنه سقط كلّه أرضاً، وتطلّع إليها بنظرات غريبة، كأن الخوف والغموض ابتلعا وجهه بعدما سقط أرضاً، ثم قال بصوت هامس وحذر:
- فيّي إسألك سؤال يا علوية؟
- إي، شو؟
- يعني بتجاوبيني بصراحة بدون كذب؟
- أكيد، ليش مابدّي جاوبك بصراحة؟
أجابته وهي تخفي ارتباكها، تنّبهت إلى أنهما في البيت لوحدهما، وفكّرت في أنها تهوّرت بالمجيء إليه. قد لا يفهم أنه ليس أكثر من صديق، وخطر ببالها أن يسألها إذا كان لديها مانع أن تكون ثمة علاقة بينهما.
صمت قليلاً، وقال لها وهو يفرك يديه ببعضهما، ويغمض عيناً ويفتح عيناً:
- إنتِ مين دازّك عليّ؟ عن جدّ قولي وما بزعل.
- كيف يعني مين داززني عليك؟
- يعني، المخابرات الأميركية أو الروسية أو أي مخابرات، قولي لي؟ أنا مابزعل إذا كنت صريحة، بس بدّي أعرف، واحكيني بصراحة.
في البداية اعتقدت أنه يمزح. لكنه حين ألحّ في السؤال، ووجهه يكفهرّ ويغرق في السواد والخوف، عرفت أنه يتكلم بجديّة.
- يا إلهي، شوهالمصيبة يللي حطيت حالي فيها؟
قالت في نفسها وهي تعدّل جلستها على الكنبة وتتطلّع إلى الباب، وتفكر كيف يمكن أن تصله وتفتحه وتهرب.
لكنها قبل أن تفعل، أحبّت أن تدخل في اللعبة، لربما كان يلعب ويريد أن يجنّنها في مسرحيته، أو ربما فعلاً جنّ، أو أنه يقلّد أحد أبطال مسرحيته التي يكتبها، فقالت مخفية خوفها منه:
- شوف يا زهير، أنا إذا بتحبني عن جد، ما بتسألني هالسؤال.
- ليش؟
- لأن ما فيّي قل لك مين داززني عليك. المخابرات يللي دزّتني عليك بتروّحني وبتصفّيني، وإنت بيهون عليك يقتلوني؟ منشان هيك مافيّي قل لك.
وعادت تفكر كيف ستصل إلى الباب، تفتحه وتخرج وتغلقه خلفها، وتتأكد بعينيها أنه بقي داخل البيت.
ثم وقفت، وبدا خوفها منه على وجهها، ووقف هو وبدا خوفه منها ظاهراً على وجهه. أرادت أن تصل إلى الباب بأسرع ما يمكن، وأرادها أن تصل إلى الباب بأسرع ما يمكن.
حملت حقيبتها على كتفها وقالت له دون أن تتطلّع إلى وجهه:
- باي، وشي مرة ببقى بخبّرك مين دزّني عليك.
- مابدّك تاكلي فاصوليا؟ رح تستوي.
- لا، أنا مش كثير جوعانة، كول إنت، بعدين أنا تأخرت.
- وأنا هيك رأيي تروحي هلّق، لأن مضبوط تأخّرت. ببقى بطبخلك فاصوليا مرة ثانية.
ركضت إلى الباب مسرعة.
وأرادها أن تركض بسرعة أكبر.
خرجت من مدخل البناية الذي كان غارقا في الظلام، وهي غارقة في الخوف. تتذكّر كلامه وتستعيد وجهه أمامها يطفىء سيجارة الجيتان في المنفضة وهي لاتزال في أوّلها. يمجّ منها مجّتين ويطفئها، ثم يشعل سيجارة أخرى، يمجّها مجتين، ويطفئها أيضا وهو يستعد لسؤالها. وقبل أن يسألها سؤاله الشهير، يزيح بالسيجارة المطفأة كتلة الرماد وأعقاب السجائر في المنفضة. عيناه تسرحان في مرآة صغيرة يعلّقها على جدار الصالون، ربما لكي يشعر بالأنس حين يرى وجهه معه في الصالون لوحده. فالدكتور، في أكثر الأيام، وحيد في منزله، وخصوصاً بعدما قطع علاقته بصديقته، خوفاً من أن تراقب حركاته وأفكاره، وتدز عليه أيضا.
يجلس في بيته وحيداً يعيد قراءة الصحف التي يحتفظ بها منذ بداية الحرب. يقصّ منها كل تصريحات السياسيين ليفهم، ويقصّ أخبار المجازر التي حصلت. يقصّ التواريخ السود والحمر. وفوق مكتبه أوراق جرائد مقصوصة يعيد قراءتها كلها، ثم يكتب في الليل بعد أن يقرأ الأحداث.
قبل أن يكتب، يقف خلف باب البيت ويتلصّص من فتحة «الناضور» وهو شاحب اللون، خوفاً من أن تتلصّص المخابرات الدولية على مايكتبه. يكتب ويضع يده فوق ما يكتب لكي يخفي كلماته عن عيون المخابرات، كالتلميذ في الصف حين يخفي مايكتبه بيده عن عيني زميله الذي يعرف له يسترق النظر إليه ليأخذ منه المعلومات. ثم ينام أوائل الفجر بعدما يكتب.
ينهض مساءً ليعود ويكتب، بعد أن انقطع عن العيادة، فلم يعد أحد يطرق باب عيادته.
حين ينهض من النوم في اليوم التالي ويقرأ ماكتبه في الليلة السابقة، يجد الكلمات تمحو بعضها، والأخبار والحكايات والتصريحات وكل شيء يمحو بعضه. يعيد قراءة عدد الضحايا والشهداء الذي سجّله في اليوم السابق، فيجد أن الرقم الذي كتبه صار مئتين بدل العشرين، فيطير عقله. يتلفّت يميناً ويساراً ويبقى طوال الليل ساهراً في فراشه مدّعيا النوم، ليرى من سيدخل بيته سراً ويغيّر الأرقام والكلمات والحكايات في أوراقه.
من غيّر هذا البطل من يساريّ إلى أصولي؟ من غيّر الوطنيّ إلى متآمر على الوطن؟ من الذي أضاع المقاييس التي يبحث عنها في أوراقه؟
إنها علوية ربما...
- ياريت فيّي أعرف كيف بتتسلّل عالبيت وبتمحي وبتغيّر كل يللي بكتبه. أنا عارف عم تتآمر عليّ لتجنّني بروايتها. ياعمّي قولوا لها لا بعرفها ولابدّي أعرفها، ولا بدّي أكتب عن الشخصيات يللي عم تكتب عنهم. شو بدها فيّ.
برجع بلاقيها كاتبة على أوراقي يللي بدها اياه، مش بس برجع بلاقيها حاطّة أسماء وحكايات على ذوقا، إلا بتغيّر كل شي كاتبه. بس مش عارف كيف بتفوت عالبيت وبتسحب الوراق وبتمحي الكلمات. وفي أوراق بلاقيها امّرمغتها بالمي والوحل.

- مسكين زهير، قالت لي علوية، وأضافت:
- بس أنا مش فاهمة ليش روكب عليّ أنا، أنا كان كل قصدي إنه نشتغل سوا. وأنا متأكدة إنّه كان موهوب كتير وصادق .يمكن لو ما غطس بالحرب ماكان جنّ. أكيد كان كتب إشيا حلوة .ياريته ضل مهتم بالطب وشو كان بدّه بهالشغلة.
لكني لم أحزن عليه كما حزنت عليه علوية .حين تعرفّتُ إليه في الحرب أحببته لكثرة ما كانت تحبّه، وكنت أراهما كأنهما توأمان. كانت تسرع إليه لتخبره كل شيء، ويركض إليها كلما سمع حكاية .وأذكر تماماً يوم قالت لي إنها ستبدأ الرواية بفاصلة، وسيبدأ المسرحيّة بواو.
طارت الفاصلة وطارت الواو، وطار عقل صديقنا المسرحي. لم يعد يعرف أحداً ولا يهتم إلا بأمر من يلاحقه ليكتب «دوسييهات» للمخابرات عنه، ليس فقط كيف يفكّر، وإنما ماذا يأكل وماذا يشرب وكيف يتأمّل الشجر والناس والمارّة ومشهد البحر، وكل شيء. قال لي مرة قبل أن يجن:
- الحروب الدولية مابتنفع أهداف الدول الكبرى .لا القنابل النووية رح تنفع ولا الطيارات والصواريخ المتقدمة. يظن إنّ الأنظمة الدولية رح تكشف إنّه الأنظمة العربية هي النموذج المطلوب للقمع والسيطرة .العولمة هي إنّه يصير في دوسييه لكل مواطن بالعالم. الدوسييه بيفيد أكثر من القنابل النووية .دوسييه لكل واحد بتسجّل عليه المخابرات شو بياكل، وأي ساعة بيقوم من النوم، ومين التقى، وشو فكّر، وبشو حلم بالليل. وبيصير كل واحد يخاف يطلع برّات الزيح. بيعرف المطلوب منّه: كيف يبكي، وكيف يضحك، وشو يلبس، وكيف يمشي، بيصير يعرف الزيح وكيف يمشي عليه. وأنا عم

بيلاحقوني هلّق لأني مش عم إمشي عالزيح.
ولكني لم أعرف أن الزيح الذي دخله جعله غير قادر على معرفتي، وصار يوم ١٩/٣/١٩٩٠ اليوم الذي لن أنساه.
لمحته واقفا قرب كنيسة سانت رتا بالقرب من بيته في رأس بيروت، وهو يحتضن بين ذراعيه أوراقا ومنشورات يوزّعها على السيّارات العابرة. عبرت بسيّارتي أمامه، توقفت وأنزلت زجاج النافذة. كان المطر شديداً، لكنه لم يأبه له، رغم أنه غسل رأسه وثيابه. كان وجهه شاحباً وحزيناً. وجسده الطويل كأنه عصا منحنية لشدة هزاله. مسح ماء المطر عن وجهه بكمّ جاكيته المبلّل، وأعطاني المنشور ونظر إليّ كأنه لا يعرفني. أخذته منه دون أن أحكي معه، حتى عيناي حاولتا ألا تريا وجهه عن قرب.
. خذي ياست هالرسالة واقريها.
أخذتها منه دون أن اتفحص وجهه كي لا أبكي.
أعطاني الرسالة دون أن يعرفني، ثم سحب ورقة أخرى ليعطيها لسائق السيارة خلفي. نظرت إليه في مرآة السيارة الجانبية فرأيته يدق بقوة على زجاج ذلك السائق لأنه رفض فتح الشباك وأخذ الورقة منه.
لم أستطع أن أمسك الدمعة في عيني وأنا أقرأ المنشور الذي يوزّعه. أوقفت سيّارتي إلى جانب الطريق وبدأت أقرأ رسالته التي أرّخها بتاريخ ١٩/٣/١٩٩٠:
«في هذه الرسالة بعض الحقائق الموجزة لمشكلة استغلّ الواقفون وراءها الظروف غير الطبيعية للبلد، وانشغال المواطنين بهموم أرزاقهم ومعيشتهم وما يتعرّض له الوطن من أخطار. وهي تلقي الضوء على خلفيات الكثير ممّا جرى.
لقد سبق أن أوضحت المشكلة برسالة مؤرخة في ٢٠/١١/١٩٨٨، وبأخرى مؤرخة في ٢٨/١٠/١٩٨٩، أوصلتها إلى الجهات الرسمية على كافّة المستويات وإلى مراجع أمنية وروحية ونقابية (صحافية وطبية وحقوقية وأدبية وثقافية وتعليمية) وروابط طلابية وهيئات تعليم جامعية، بالإضافة الى سفارات الدول الغربية التي تُظهر اهتماماً بعودة الحالة إلى البلد، وإلى الامانة العامة لجامعة الدول العربية التي طالما دعت وتدعو لعقد المؤتمرات في شأن الثقافة والاعلام ومحاربة الفكر الصهيوني، وهي تتلخّص في مايلي:
كنت أعمل في حقل الطب، وكنت أنوي التحوّل إلى كتابة المسرح بهدف إنساني من خلال نظرة شمولية للإنسان، متّخذاً من تجاربي وتأمّلاتي ومعرفتي بمتابعة خطط التآمر على البلد أفكاراً لمسرحية من أجل خدمة الإنسان وقيم الحرية والعدالة والخير والسلام في كل مكان.
وشرعت بتدوين ما اخترته في الذاكرة، وما قصصته من أخبار الحرب في الجرائد، أساس كتابتي المسرحية.
ولكن في آذار العام ١٩٨٩ راح بعض الأشخاص يدخلون خلسةً إلى الشقّة التي أقيم فيها بمفردي، خلال غيابي في النهار وأثناء نومي في الليل، ويضعون إشارات ورموزاً، إلى أن جعلوني أدرك أن جميع ما كتبته قد سرق ووُضعت مكانه أجزاء مزوّرة ومشوّهة. ومنذ ذلك الوقت صارت بعض الأجهزة العالمية تتّصل بي بشكل غير مباشر في محطّات الإذاعة والتلفزيون وفي الجرائد، مستعملة أحاديث وأقوالاً مموّهة لا يفطن إلى القصد المبطن فيها القارىء أو السامع العادي، ولكنهم يلفتون انتباهي بإشارات أني المقصود بها، وكذلك عن طريق الاستمرار بدخول الشقة ووضع إشارات للتعبير عن قصدهم (كمثل وضع نقاط على بعض الكلمات أو الجمل في الكتاب) بل وتغيير ما أكتبه كله. كان غرضهم أن أتعاون معهم في مجال الفكر والأدب خدمةً للصهيونية، وقد عمدوا إلى إغراءات المنصب من ناحية، والتهديد بالقتل وأخيراً أقول للذين يقفون وراء مايحدث: لقد تماديتم في العمالة والضلال حتى العبثيّة التي لم يصفها أيّ مسرحي في العالم، بعد وقوعكم أسرى لذواتكم. حذار من نزوع العقل إلى تبرير كل شيء، لأن التبرير المطلق لن ينتج عنه في النهاية إلا الشرّ المطلق.

قرأت الرسالة، ولاح وجهه الشاحب المُصفرّ أمامي على البيان الذي أمسكه بيدي.
حزنت على بدايته ونهايته، وعلى بطل من أبطال رواية علوية التي لا أعرف إذا كانت هي من أخبرتني مصيره، أم أنا التي أخبرتها وراحت ونسيته ونسيت نهايته

ومصيره.

لكني لن أنسى أن أودّعه، وإن كنت لم أره من زمان، ولم أعد أعرف عنه شيئاً.

شيء ما في داخلي دفعني إلى الذهاب والسؤال عنه قبل أن أسافر، ربما لكي أتأكد إذا كنت أعرفه حقاً، أم أن علوية أخترعته.

ذهبت إلى الشارع الذي يسكنه، دخلت البناية وطرقت على باب شقّته في الطابق الأرضيّ، وأنا أتخيّل أنه سيفتح الباب ولن يعرفني، أو ربما لن يفتح خوفاً، بعد أن ينظر من«الناضور» ويراني ويتهيأ له أن علوية، عميلة المخابرات، أرسلتني لأتقصّى آخر أخباره، كي تضمّها إلى الدوسييه الخاص به.

الغبار كان يغطي اللون الابيض للباب الخشبي لمنزله، وقفل كبير كان يتدلّى من الباب، وآثار الصدأ بادية عليه، كأنه لم يُفتح منذ زمن بعيد. سألت البوّاب وسألت الجيران، بل سألت أهل الحي كلهم، لكن كل واحد منهم أخبرني حكاية مختلفة عنه وعن مصيره، بل حكاية مختلفة عن مهنته وشكله وحتى عن اسمه وسبب أختفائه.

منهم من قال لي إنه مات جوعاً وإضراباً عن الطعام، وإنه بقي لأيام ينظر من ثقب الباب خائفاً من دول تتلصّص عليه. وحين فاحت رائحة جثته في المبنى خلعوا الباب ووجدوه ممدداً على الأرض وحوله أوراق مسرحيته التي كتبها، ووجدوا آثار أوراق محروقة، حرقها ربما قبل أن ينتحر. أوراق محروقة جمعها من الجرائد وكان ينثرها أمامه على الطاولة ثمّ يعود ويجمعها.

تواريخ الحروب وهزائم ومجازر بدلّت أسماء الأيام والأشهر والسنوات وألبستها أسماءها. وملأت هذه التواريخ الزمن الذي امّحى بالمطر والوحل والمجازر. تواريخ وعناوين أعطت صفات وألوانا للأيام.... فصار السبت أسود، والأحد أحمر.. ونيسان مشؤوماً، وأيار رمادياً، وحزيران منكوساً... والسنوات كلها لها ألوان الأسود والأحمر والرمادي، بل لون اللالون المغبّر في العينين.

ورغم تحلّل التواريخ في الماء والوحل والدم على أوراقه... قرأ الجيران عناوين وعناوين، لكل المجازر التي ارتكبناها بحق بعضنا، وأرقاماً للهجرات الداخلية والخارجية... أرقاماً لأعداد الموتى، وأخرى لأعداد المفقودين.

حرق كل ذلك في أوراقه لكي لا يعرف أحد ماذا كتب عنها... قال لي أحد الجيران. وحرق معها عمره وحيرته وشكوكه ونضاله وحياته.

سألت ذلك الجار الذي قال لي إنه شاهده بعينيه ممدّداً على الأرض: متى انتحر؟ قال:«مابعرف، يمكن أوائل التسعينيات، أو يمكن آخرها، ماعدت متذكّر».

سألت جاراً آخر عنه، فأكد لي أنه مات. لكن أسباب فتح

الباب عليه حكاها بطريقة أخرى. قال إنهم فتحوا الباب بعد انتحاره بأيام. انكسرت حنفية الحمّام وفاض بيته بالماء ممزوجاً بلون دمه الأحمر، فكسروا الباب ليجدوه ممدّدا على الأرض وحوله أوراقه ممرّغة بالدم والماء، عائمة فيهما.

لكنّ جارة أخرى قالت لي: كذب.

كل جار في الحي أخبرني حكاية مختلفة عن اختفائه. كلٌّ منهم أعطاه إسماً مختلفاً ومهنة، ووصفه بشكل مختلف، ونسبه إلى قرية مختلفة.

منهم من قال لي:

- ماتصدقي، ماحدا مات هون، هوّ ترك المسرح والوراق، وراح يشتغل بالسعودية طبيب.

ومنهم من قال:

- راح مشي عالضيعة أيام حرب جبل لبنان سنة ١٩٨٣، وهونيك لاقوه مقتول. راح مشي لما اتّصلوا فيه إخواته الشباب يللي هربوا بالحرب من القوات اللبنانية على باريس، حتى مايغتالوهن لأنن يسارية. ولّما سمعوا أخبار هزيمة القوات بالجبل عملوا عزيمة لرفقاتن ببباريس ليشربوا نخب الإنتصار عالقوّات. هنّي وعم يحتفلوا ويدقّوا كاساتن ببعض، اتّصل فيهم خيهم الدكتور زهير وقللّن إنه أمهّن وبيّن وإخواتهن كلّن قتلوا بحرب الانتقام يللي أكلت الأخضر واليابس. يومتها، راح مشي عالضيعة بالجبل واختفى. وإخواته مارجعوا من باريس على لبنان أبداً.

لكنّ جاراً آخر قال لي: كذب، كلها إشاعات:

- ماكان عنّا جار بهالإسم. هيدا البيت تركه صاحبه أول الحرب وهاجر وبعده مسكّر ومقفّل من وقتا. في مرا غريبة بتجي مرّة بالشهر، بتفتح الشبابيك وبتشمس البيت وبتنظفه وبتسقي الزريعة وبتروح. بفتكر إنه البيت لإبنها يللي مات بالحرب على حاجز طيّار.

ورفضت إنّه تبيعه أو يسكن فيه حدا غيره. بتجي تنظّف الغبرة عن المكتب والمكتبة والكتب والصور، وبترجع تسكّر الباب وبتروح. ختيارة وبتضلاّ لابسة أسود من فوق لتحت، ودائماً حزينة.

ضعت في حكايات اختفائه قبل أن أغادر، وسألت نفسي وأنا أحاول أن أجمع ذاكرتي: تُرى أين اختفى؟ هل جنّ وذهب مشياً الى الجنوب، أم إلى الجبل، أم إلى الشمال، أم إلى البقاع، ليفتّش عن وطنه الذي حلم أن يكتب عنه مسرحية، متوهماً أنها ستعيد للمواطن رشده وعقله وتُبعدُه عن الطائفية والعنف والحقد، فضاع وفُقد بين الذين فُقدوا؟

من هو زهير، دكتور أم مسرحي، أو مواطن عادي، أم علوية، أم أنا ربما.؟

أين هي الحكاية الصحيحة، الأقرب إلى التصديق بين الحكايات التي حكاها لي الجيران؟ أين اختفى زهير؟ هل اختُطف واختفى في الآبار الجماعية، بين الذين اختفوا؟

سألت نفسي وأنا أقرأ في الصحيفة في ٣ آب عام ٢٠٠١ تحقيقاً حول مخطوفي لبنان الذين بلغ عددهم الآلاف من المسلمين والمسيحيين الذين ابتلعتهم المقابر والآبار ووادي الجماجم؟

وقرأت يومها في التحقيق أن العميد أبو سليمان قال: «التعرفّ على الجثث مستحيل، ومن لم يظهر بعد فهو ميت قانونا».

هل الدكتور زهير ميت قانوناً أم حيّ قانوناً؟ بل هل صحيح أنه وُجد في وقت من الأوقات، وأني أعرفه ويعرفني وحكيت له حكايتي؟ أم أن ذاكرتي صارت تخونني وصرت أبحث وأنا أريد أن أغادر ذكرياتي، ليس عن علوية فقط لأودّعها، بل عن أبطال كتابها الذي صدّقت حكاياته وحكايات أبطاله، بل صدّقتُ ماقالته لي ذات يوم بعيد، من أنها ستكتب عنهم وعنّي؟

تلك الليلة، لم أصدّق عينيّ.

لم أصدّق أنّ علوية هي التي تتحدّث أمامي على إحدى شاشات التلفزيون. علوية في ماكياج كامل، لم تعرفه من قبل، الكحل فوق عينيها، والماسكرا الكثيفة على رموشها كأنها حمل ثقيل، مما جعل حركة عينيها بطيئة وهي تنوء بذلك الحمل، كأنه سيقع أرضاً.

شعرها لم يكن منفوشاً كعادته، بل مسرحاً ومثبّتاً بالسبراي، فيما فستانها الأسود الطويل الضيّق لا صلة له بطريقة لباسها المعتادة ولا يذكّر بها. لم يكن في تلك العلوية على شاشة التلفزيون شيء يذكّر بها إلا صوتها وحركة عينيها.

كانت تتكلّم عن المجلّة التي ترأس تحريرها كما لو أنها تقوم بإعلان لها. وكانت المذيعة المعدّة للبرنامج الفنّي الذي يستضيفها تسألها عن رأيها ببعض المطربين الجدد، وعن رايها بالمجلات النسائية وأسئلة من هذا القبيل لم أعد أذكرها.

لم أصدّق لا عينيّ ولا أذنيّ.

أهي علوية التي تحكي أم امرأة أخرى تحمل الاسم والصوت نفسهما؟ هل تعرف علوية أسماء هؤلاء الفنانين لتسألها المذيعة عنهم؟ هل تسمع علوية أغانيهم حتى تعرف ماذا تجيب؟ ما دخل علوية بهذه الأمور التي تتكلّم عنها، وأنا لم أعرفها سابقاً إلاّ منغمسة بالسياسة والكتابة، بل وبحلم كتابة أخرى.

لماذا لم تسألها المذيعة أين كتابها الذي وعدتنا به، وحكينا لها كل حكاياتنا فيه، وراحت ونسيت؟

هل هذه هي علوية التي في الشاشة؟ أم أنها تغيّرت مثلما تغيّر كل أبطال روايتها أيضاً؟ هل هربت من هزائمها فاختبأت في عالم آخر تنزوي وتكتب نسيانها فيه؟

بل سألت نفسي: هل علوية التي أعرفها اختفت أو ضاعت مثلما اختفى الدكتور زهير وهو يحمل أسماءه الكثيرة مع من ماتوا وفُقدوا وقتلوا؟ أم انتحرت مثلما قالوا في إحدى الحكايات عنه أنه انتحر، بل هل للانتحار أسماء

وأشكال وألوان كثيرة؟

لا أعرف.

لا أدري.

أدري أن آخر ماقالته قبل أن تختفي في القمقم الذي ضاق بفراغات صدرها: «يا مريم، ستقتلني الفراغات الكبيرة التي تملأ صدري حتى الاختناق. لا. لن أستطيع أن أكتب وأملأ أي ورقة لأكتشف إذا كنت على قيد الحياة، إلا متى أفرغت الفراغات كلها من صدري. ولكن كيف تخرج يا مريم إن لم أفهمها. لقد امتلأ صدري بها لسنوات طويلة، ومايحزنني أنني ربما أحتاج لسنوات أطول لأتخلّص منها».

وقفتْ وتطلعتْ حولها فلم ترَ سوى الفراغات، بعدما حفر كلّ منا بئره في جسده بيديه، دأباً حاله فيه ومغلقاً عتبته خلفه، لتصير المدينة كأنها مقلوبة راساً على عقب. جدران الأبنية العالية كأنها جدران آبار. وكأننا نرى وجوهنا وأجسادنا في المدينة كما نرى وجوهنا وأجسادنا في ماء الآبار والحفر.

كأن علوية لم تعد تريد أن ترى وتسمع بعدما وقفت ولم ترنا، فخافت من العتبات ومن الفراغات. خافت فبدأت تحفر بئراً ترمي فيه فراغات صدرها ليكون أعمق من الآبار كلها. وقفت وحفرت بيديها وقدميها مثلما حفرنا. وحين تعبت يداها وقدماها استعانت بعينيها ورموشها وفمها ولسانها وأذنيها. تشاركت كل أعضاء جسمها لتحفر البئر. وربما لم توفر في الحفر رأسها وشعرها الذي تنكسر أطرافه من نسمة هواء.

لكنها بين فترة وأخرى ترفع جسدها ووجهها خارج

عتبته لتبحث عنّا علّنا خرجنا من آبارنا. وحين لا تجد أحدا منّا تنحني بوجهها على عتبات الآبار، عتبة وراء عتبة، وتصرخ لنا، فلا تسمع سوى صدى صوتها وتسمع معها صدى صوتنا فيه.

أين هي؟ لا لكي أحكي لها ثانية عن مريم، وإنما لأطمئنّ على مصيرها وأودعها.

قبل أن تغيب وتنقطع أخبارها أواخر أيام الحرب لم أكن ألتقي بها إلا بالصدفة، وأنا عابرة أحيانا في شارع الحمراء. أسلّم عليها وتسلّم عليّ كأيّ غريبتين، ولا يتعدّى سلامنا وكلامنا سوى الكلمات ذاتها في كل مرة، أسألها:

- كيفك؟

- عال، منيحة، وإنت؟

- ماشي الحال، على حطّة إيدك، وإنت؟

- ماشي، شو بتخبّرينا؟

- شو بدّي خبّرك، متل ما أنا، ومتل هالبلد، عم لقّ متله هيك وهيك. وتضحك.

- يللّه... كلنا بالهوا سوا.

- خلّينا نشوفك.

- بشوف، انشاالله، وإنت إبقي اتّصلي.

- إي أكيد.

تروح، وأروح، وأشعر بالغصّة للحظة، بعدما ألتفت إلى الوراء وأرى كتفيها العريضتين وهي منحنية وذاهبة إلى مجهول لا أعرفه، وأحسب أنني سلّمت للتوّ على غريبة عنّي، بالصدفة. أشعر بالغصّة وأنا أفكر كيف «تفرفطت» العلاقات بعد الحرب، وأسأل نفسي السؤال الذي طالما سألتني إياه ابتسام: هل هي الحرب، أم التقدم في العمر؟ هل هي الهزائم، أم أن الحياة هكذا؟

لا أعرف.

أعرف أنني حين قرّرت السفر، لم أجد نفسي إلا وأنا أقتحم مملكة عزلة علوية في بيتها، هي وأمها.

كنت أحتاج أن أحكي وأن يسمعني أحد، ويشجعني على قراري بالهجرة والزواج من أمين، أو يصرخ في وجهي ويقول:

- إنت كمان؟ حتى إنت؟ حاملة نصّ عمرك الباقي، ويمكن ربعه، ويمكن ربع ساعة بعد فيه، ورايحة؟

كنت أحتاج أن أحكي، أن يخرج الكلام من رأسي على الأقل، لأسمعه. رأسي الذي كاد أن ينفجر، والذي وجد في دعوة علوية للسهر عندها في ذلك اليوم، بعدما زرتها في بيتها مساء، فرصة للخروج من سجن الرأس.

الكلام كان يدور في رأسي كدوران الأرض حول نفسها، الفرق أن دوراني كان بلا جاذبية ولا فضاءات ولا شموس ولا كواكب ولا ضوء. فقط، دوران ظلّ على عتمة مقعده، دورانه في راس أختلّ توازنه.

ولمن أحكي؟

ابتسام لم تعد تسمع، ولن تسمع سوى صوت مجّ خدّها وأكله، وان سمعت فلن تقرّر أن تفهم. وياسمين لن يهمّها أن تسمع عن آخرتي في الدنيا، ولا يعنيها إلا أخرتها في السماء.

وعبّاس؟

هل أقول له إنني ساقطع علاقتي به وأهاجر وأتزوج غيره؟ هل أقول له إنه لو لم يكن في حياتي طوال تلك السنين لكانت روحي انقطعت عن جسدي، وظلّي انقطع عن أي ضوء؟ ماذا سيكون ردّه؟

لمن أحكي من كل أقاربي وأصدقائي؟ لم يعد أحد ممن أعرفه يريد أن يسمع غير صوته، أو يخرج من قمقم ذاته وبئر صورته في ماء عينيه، أو يشم غير رائحة جسده، أو يتلمّس فضاءً بعينيه خارج جغرافية جسده، أو يتلمّس بيده غير طيّات لحمه.

حتى الجيران في المبنى الذي أسكنه تبدّلت علاقاتهم بعد انتهاء الحرب. حين وقعت قذيفة أيام الاجتياح الإسرائيلي على الشقة الشمالية في الطابق السادس، ركض الجميع، حتى جارنا «الخويّف» أبو ماهر، ركض«بكلسونه» الأبيض الذي يصل إلى ركبتيه النحيلتين، وحمل إبنة الجيران البالغة الرابعة عشرة من عمرها، بعدما أصيبت بشظّية في كتفها، ركض بها أبو ماهر الذي يخاف من خياله، مثل الأسد، حملها بين يديه غير خائف من القذائف.

حتى زينة، كانوا يتراكضون لأخذها إلى المستشفى حين تصيبها النوبة، والآن لا يركضون إلا ليضربوها، ولا

يتسابقون في الركض إلاّ إلى حمل الصرامي والعصيّ، يتراكضون لأذيّتها ثم ينسحبون ويختفون قبل حملها إلى المستشفى.

في ذلك اليوم، فرحتُ لدعوة علوية لي، وربما كانت تحتاج لمن تحكي معه. رحّبت بي ما إن طرقتُ باب البيت وفتحتْه مبتسمة، كأنني لست تلك الغريبة التي تسلّم عليها صدفة في الشارع.

في ذلك اليوم بدت علوية مهتمّة لمصيري كصديقة لها، ولم تكن مهتمّة لهذا المصير في روايتها، بل كانت تحاول أن تغيّر الحديث كلما أردت أن أحكي لها عن ابتسام أو عن أم طلال أو ياسمين.

وفي ذلك اليوم أيضاً، فرحتُ لأنها لم تحدثني عن«الأنتبيوتيك». بدت مرتاحة وفرحة، دون أن أعرف لماذا، ولم تبدُ لي «مس أنتبيوتيك» بعد أن تغيّر اسمها عندي، بل صرت أراها في السنوات الاخيرة وكأنها كبسولة أنتبيوتيك بقدمين، ما إن أراها من بعيد.

ما من مرة التقيت بها إلا وكانت تتناول حبّة من ذلك الدواء. وما إن أفتح فمي لأقول لها إن إصبعي يؤلمني، حتى تتطلّع إليّ من تحت نظارتها وتقول: «خدي أنتبيوتيك»، وتعدّد لي كل الأنواع الجديدة النازلة في السوق.

في ذلك اليوم، لم تكتب لي على ورقة صغيرة تقطعها من دفترها اسم أيّ أنتبيوتيك، كما لم تحدثني عن الجراثيم والميكروبات. كان دوائي أن يساعدني أحد ويستمع إليّ وأنا أحكي عن قرار المغادرة.

لا أذكر مما حكته لي في ذلك اليوم سوى سؤالها الذي كررته أكثر من مرة.

ـ حتى إنت؟ معقول؟

سألتني باندهاش وخوف.

لا أذكر إن كانت شجّعتني أم لا، بعدما علمتْ أني اتخذت القرار وحسمتُ الأمر. لكني أذكر أنها صارت تحكيني عن الحياة، حكت عن شرشف الحياة وشرشف الوحدة دون أن أفهم شيئا مما قالته، بل صارت تحكي عن الشراشف الكثيرة في الدنيا.

سألتني إذا كان لكل واحد في الدنيا شرشفه الذي يغطّي به دنياه، أم هناك شرشف كونيّ واحد تلتحف الدنيا فيه، وصار ممتلئاً بالأنفاس والعرق والميكروبات. سألتني هل يمكن للغسّالة الأوتوماتيكية أن تغسل شرشف الحياة بعد أن نضعه فيها، وإذا اهترى هل تهتري الدنيا وتبوخ معه؟ وفيه الواحد قولك يغيّر شرشف حياته؟ وبيقدر؟ والاّ بسّ بغيّر الشرشف بتتغيّر حياته كمان؟

صرت أتطلّع بعينها وهي تحكي، وكدت أصدّق أنها جنّت مثلما جنّ صديقها زهير.

علوية تحكي عن الحياة؟ لم أفهم أي حياة تقصد، هي التي لا تخرج من الشارع الذي تسكنه منذ أكثر من عشرين سنة، وإن خرجت منه ومن محيطه تضيع.

وقتها سهرت معها في بيتها، وتحدثنا كثيراً حول أمور عديدة لكني حاولت أن أتجنب سؤالها عن ذكرياتنا التي وعدتنا بكتابتها.

منذ ذلك اليوم، وجوعي للسؤال عنها ليس له جواب.

لم أعد أراها.

لكني تذكّرتها في ذلك اليوم.

عاد منظرها إلى عينيّ وهي تحدثّني من زمان عن الرواية والأدب والثقافة، وأصدّق جوعها للكتابة.

حين شاهدتُ علوية في المقابلة التلفزيونية، رحت أسأل نفسي اسئلة لا أعرف أجوبتها، لكنني لم أنس أن أتذكر حكاياتنا حين رأيتُها، ولم أنسَ أن أودّعها، وأن أسألها: ترى هل نسيتنا وتغيّرتِ مثلما تغيّرنا كلنا؟

انتظرت صباح يوم الأحد التالي وقصدت بيتها. دخلت الزاروب المؤدّي إلى المبنى الذي تسكنه قبالة سينما سارولا في الحمراء، لم أجد سوى أنقاض مبنى، وآثار الهدم والحجارة المتراكمة فوق بعضها، حتى الشجرات العالية التي تبلغ سنوات طويلة من العمر، والتي كانت تصل بظلها إلى ما فوق نافذة صالون بيت علوية في الطابق الرابع، لم أجدها. سألت جورج، بواب المبنى المجاور، والذي يقف دوماً على رأس الزاروب بعينيه الحمراوين من كثرة الشرب، فضحك وقال لي.

ـ أوه... فلّوا من زمان، من وقت ما انباع المبنى وانهدّ، بس بعدنا ما عرفنا شو بدّو يطلع محلّه.

انتظرت صباح الإثنين التالي واقتحمت مكتبها في الحمراء أيضاً، علّني أراها وأعرف ما الذي غيّرها وبدّلها، ومتى سأقرأ الكتاب الموعود.

أخذنا الحديث ولم أسألها عن كتابها، بل فكّرت أن أسألها ولكن بدا أنها نسيت الموضوع وتخلّت عنه وعنّي وعنّا جميعاً. حتى لو سألتها، كانت ستجيبني بارتباك، وهي تتفادى أن تلتقي عيوننا، أنها تكتب، وأنها ستنتهي من الكتاب قريباً، والقريب لا يأتي.

خرجت من مكتبها دون أن أحكي معها عن رأيي في المقابلة التلفزيونية بعدما تهربّت أيضاً من الكلام عنها.

لم أعد أصدّق شيئاً.

لم أعد أصدّق ما وعدتني به يوماً، أو هل ستكتب، ولو في آخر ربع ساعة من حياتها.

والربع ساعة الأخيرة أتت، وقد تكون تجاوزتها.

هل صارت تخاف من الكتابة يا ترى؟

السؤال شغلني قبل أن أحصل على الفيزا وبعدها. ليس لأنني أريد الآن أن أعثر على ذكرياتي قبل أن أسافر،

فذكرياتي سأدعها هنا، وأنا يئست منها ومن الكتابة، بل لأنني خفت على علوية، خفت لأنني أعرفها. خفت أن تكون قد صارت تخاف من الحياة مثل أبطال روايتها، وإن كان خوف كل واحد منهم مختلفاً.

أن تخاف من الكتابة فهذا معناه أنها صارت تخاف من الدنيا، تخاف منها ولاتريد أن تعيشها أو تعرفها. فأنا أعرف علوية، كل الصور والذكريات والمشاهد تمرّ أمامها بطريقة سريعة مشوشّة، ولا تتذكّر ملامحها وتفاصيلها إلا في لحظة الكتابة.

ما الذي غيّرها وبدّلها حتى صارت تخاف من الحياة ومن الكتابة؟ أريد أن أكتشفها وأعرفها من جديد. قالت لي ذات يوم بعيد: أحتاج أن أفهم كي أكتب يا مريم، الكتابة تعني أنني سأكتشف الخوف من جديد وأعثر على الموت وكيف يلتصق بأجفاني ويأسر حتى حركة شفتيّ.

تعجّبت وذكّرتها أنها في الحرب كانت أيضاً تخاف، وتكتب. فأجابتني بعد أن هزّت رأسها يميناً ويساراً محاولة إفهامي الفرق وقالت:

ـ في الحرب جعلت الخوف بطلاً في خيالي كي أتغلّب عليه وعلى ارتعاشاته في قلبي. الآن غلبني. كنت أصغر سناً، أثناء الحرب، ألعب بالخوف كمن يلعب لعبة «الغميضة» معه. أعصب عينيّ بمنديل الكلمات وأفتّش عنه لألتقطه وأضحك عليه كي لا أخاف منه. ألتقطه من كمّه وأنا معصّبة العينين بعد أن أهتدي إليه، ثم أعود وأعصب عينيه بمنديل الكتابة، وأدعه يقع عن حافة الجبل. أقف على قمّته وأضحك ساخرة منه وهو يتدحرج إلى الوادي العميق، أضحك لأتغلّب على خوفي منه حتى الارتجاف. حدثتني عن خوفها من اكتشاف موتها وموت الأشياء، وهي تكتب عن خوفها من جزر العزلات. عزلات البشر عن بعضهم وخوفهم من بعضهم، وخوفهم من وجوههم المشمّعة كما تتشمّع القلوب، وعن خوفها من اكتشاف قبور متحركّة في الأجساد، حيث صار كل واحد حاملاً قبره بجسده وهو يمشي. بل قد يأتي وقت يصير «كادو» أعياد الميلا
نعوشاً نهديها لبعضنا، والمساعدات الدولية للشعوب الفقيرة تصير نعوشاً بعدد أفراد شعبها.

لكني لم أفهم عليها، حاولت أن أميّز بين خوفها وخوفي، أنا أفهم فقط خوفي الآن، أفهم أن ظلّي كاد يختنق في عزلته وظلّه.

إنها عزلة الظلّ إلا عن الخوف...الخوف من كل شيء، ولكن ليس كخوف علوية، ولا كخوف ياسمين.

لا أدري لماذا تلاحقني تلك الهواجس. وقد تلاحقني في هجرتي.

ولكن أين كل تلك الأحاسيس التي حكيتها لعلوية؟

لماذا لم تجدل حكاياتنا المتناثرة كشعر صبية لا يعرف لونه غيرها؟

أذكر أن علوية وعدتنا بتجديل حكاياتنا ذات يوم، كما حكت تلك المرأة يوماً كيف تجدّل البصل في الحرب. أذكر أنني قرأت مقالاً، ربما في أوائل الثمانينيات لصحفي أجنبي، عبارة عن حوار بينه وبين امرأة جنوبية رآها تقوم بتجديل البصل رغم الحرب. سألها:

ـ كيف بتجدّلي البصل، ليش، وفيه قصف وضرب؟

ـ هيدا البصل منجدّله متل مامنجدّل شعر البنات، ماخصّ الحرب فيه. كيف منجدّل شعر الصغار؟ هيك منجدّله.

ـ وإذا إجت قذيفة حدّك، شو بتعملي؟

ابتسمت إبتسامة هادئة وأجابته:

ـ إذا إجت قذيفة حدكن، بتخافوا وبترتعبوا وبتهربوا؟

ـ أكيد، شو نحن مش بشر وما منخاف؟ منهرب، ومنرجع بسّ يخلص القصف منقعد ونجدّل.

الآن لا أحد يجدل البصل، وكلما ذهبت إلى السوبرماركت ورأيت البصل المقصوص بلا جدائل، أتذكّر ماقالته تلك المرأة، وأتذكّر علوية التي ابتسمت حين أخبرتها قصة البصل وعلّقت:

ـ أمي أيضاً، تموّن ربما لأنها تحسب أن عمرها طويل، أو ربما تريد أن تحسّ أن الزمن بعيد وطويل. الحاجة للتموين كانت ربما حاجة للانتصار ليس على الجوع، وإنما على الخوف من الزمن القصير. وجدل البصل وتموينه يجلب الإحساس بالعمر الطويل.

أين جدائل حكاياتنا ياعلوية؟

هل تحسب علوية أن العمر طويل، وأنها في ربع الساعة الأخير من حياتها ستكتب؟

هل هي في كوما أبدية أو مؤقتة؟

هل مات أحد وعاد وأخبر ماذا في الموت؟

ماذا لو ماتت وكان للموت عيون؟ وشاهدت بعينيها أحداً يقرأ خطأ كل ماكتبته في مسوّداتها بخطها الرديء؟ ماذا لو سمعت بأذنيها الميّتتين أحداً يقرأ خطأ ما كتبته، ألن تجنّ وتموت ألف ميتة وهي ميتة، ولن تستطيع أن تفعل شيئا؟

خفت

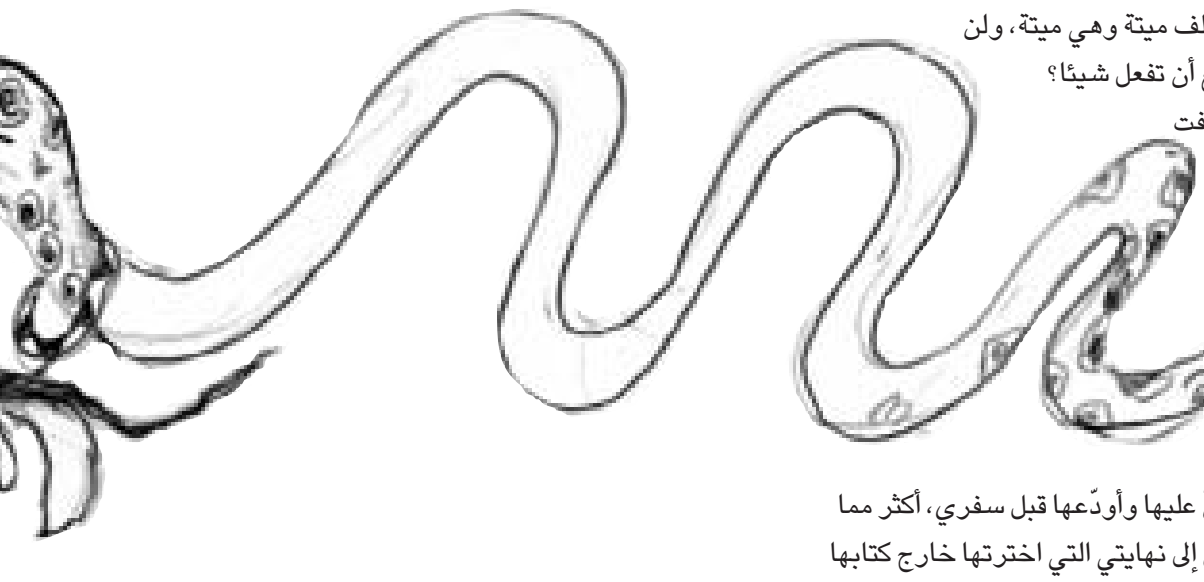

عليها

وأنا أفكر

بذلك قبل أن أغ

وأهاجر.

وددت لو أطمئنّ عليها وأودّعها قبل سفري، أكثر مما أردت الاطمئنان إلى نهايتي التي اخترتها خارج كتابها الذي يئستُ منه.

ذهبت إلى المقهى الذي كانت تجلس فيه قبالة الكنيسة على تقاطع الطرق المؤدّي نزولاً إلى سينما بيكاديللي.

وقفت خارجه وصرت أتطلع من نافذته الزجاجية الكاشفة لصالته وطاولاته، لم أجدها هناك.

دخلت وجلست وانتظرت أكثر من ساعتين بعد الظهر، وهو الوقت الذي أذكر أنها كانت ترتاد فيه المقهى. انتظرتها فقط لأطمئنّ على نهايتها لا على نهاياتنا ومصائرنا.

جلست أمام الطاولة نفسها الملاصقة للنافذة الزجاجية في الزاوية ذاتها التي تتيح لها الشعور بالانزواء من جهة، ومن جهة أخرى مراقبة العابرين من المشاة والسيارات. انتظرتها ولم تأتِ.

تذكرت وأنا جالسة أمام الطاولة أول مرة التقيت بها بعد الحرب. يومها قالت لي:«أريد قبل أن أشتري السمك، أن أراه بعينيّ في الماء، أريد أن أسمع وأستمع لك ولكل شخصيات الكتاب من جديد، وسأبدأ الكتاب بفاصلة. فاصلة ستكون أول ما أفتتح به السطر الأول من الكتاب. فاصلة واقفة ومعكوفة إلى اليمين لوحدها».

ولمَ الفاصلة؟ سألتها؟

ـ الفاصلة على أول سطر في الكتاب لأن الفاصلة تفصل بين شبه جملتين، وما سأكتبه ليس سوى فاصلة بين ما قبل الكتاب وما بعده. الفاصلة لأن ما أكتبه ليس إلا شبه جملة نكمل بها ذكرياتنا التي سبقتنا. والفاصلة لأننا كنا نشبه الفاصلة، بين ماقبل ومابعد.

لم أفهم كثيراً ماقالته، كعادتي معها. لكني أعرف أن زهيرا كان سيبدأ مسرحيته بالفاصلة المقلوبة لتصير حرف واو.

انقلبت المدينة والأشياء كلها، وانقلبنا معها رأساً على عقب ونحن نرى صورنا في مرايا وجوهنا بانعكاسات مقلوبة. انقلبت حتى الفاصلة التي كانت ستبدأ فيها ذكرياتنا، صارت «واوا» في آخرها. استدارة قاعدة الفاصلة بقيت مكانها لكن طرفها الأعلى المائل إلى الجهة

اليمنى فوق القاعدة بثقة أنّ ما بعدها سيكمل ما قبلها، انقلب إلى اليسار نزولاً إلى الأسفل. لا اقصد الفاصلة التي انقلبت إلى «واو» WOW الأميركية المندهشة، وإنما «واو» العربية لتعطف ما بعد على ما قبل. الواو العربية المثيرة للعطف والمعطوف عليهن.

راحت علوية وغابت، و«واو» العربية تعدو خلفها لتعطف أيامها الآن على ذكرياتها.

الفاصلة والواو انقلبتا وطارتا، وصارت علوية، وهي تمشي في الطريق كأنها تشبه الفاصلة براسها المائل إلى اليمين.

كأنها فاصلة أو كبسولة أنتبيوتيك، لا أعرف.

كأنها لم تعد تريد أن تتذكّر، لا تريد أن ترى ماتراه، وهي تعبر كل يوم الشارع ذهاباً وإياباً، منذ عشرين سنة، من البيت إلى المكتب وإلى المقهى. تقصّ الشارع بخطواتها كل يوم، بل بسكّين دعساتها، ولا تسمع دعسات المارة، وكأن أقدامهم وروائحهم تبتلع الشارع، كما تبتلع الآبار أجساد الموتى. تمشي في شارع كأنه شاخ وكثرت أصواته وألسنته.

كانت، أيام الحرب، تتطلّع إلى الجدران التي طُليت.. بصور الشهداء، كأن الجدران بدّلت قمصانها.

تذكّرت أيام الحرب، حين كانت تهرب منهم، من رصيف إلى آخر، وهم ينظرون شزراً إليها، لتدعوهم أو ليسألوها لماذا ماتوا، ولماذا صورهم معلّقة على الجدران، أو ليدعوها إلى اكتشاف وجهها بينهم، أو الهروب من الشارع، لتدسّ جسدها بين صورهم، وتتفرّج على حالها، وهي تمشي خوفاً منهم على الطريق.

كانت تتخيّلهم أحياناً يهربون من الجدران إلى أذنيها، ليحكوا لها عمّا يرونه ويشاهدونه بصمت على جدرانهم، وعن روائح بول الرجال عليهم.

تتنفّس الصعداء وهي تتطلّع إلى جدران مطلية بالدهان الآن، بعدما ارتاحت من مطاردة الموتى لعينيها. لكنها اليوم تصطدم بشعارات المناسبات الدينية المعلّقة بيافطات تغطّي فضاء الشارع، بين الرصيف والرصيف. تقرأ كلمات بالفصحى وشعارات لا تفهمها أحياناً، ولا تفهم لماذا تُعلّق في منتصف الطريق. وما إن تصل إلى زاوية الأوتيل القريب من بيتها، حتى ترى صورة لزعيم لبناني أو عربي، لا أعرف. تتطلّع إلى ابتسامته التي تبدو وكأنها تتوعّد من لم يمت بعد بالموت، كأنه يقول: «إيه...إيه...إيه... مين بعد ما مات منكن»؟ تتطلّع إلى الهالات السود حول عينيه، ولا تفهم احتباس الموت فيهما، واحتباس أسرار الدم.

تهرب من الصورة إلى الرصيف الآخر، وهي مقطّبة الجبين، وكأن الصورة ألصقت على الحائط كي يصبح الزعيم جزءاً من صباحنا وحياتنا ويوميّاتنا، وكي ترافقنا نظراته المتوعّدة وهالاته السود حول عينيه، أينما نذهب.

تمشي، لا تسمع حتى ما تحدّث به نفسها في الشارع. تقطع خطواتها الأرصفة، وعيناها هابطتان نزولاً إلى الارض، كعادتها في مشيتها منذ الطفولة، نادراً ماترفع نظراتها وكتفيها. ترفعها فقط حين تتذكّر ذكريات وحكايات ترفعها، تقوّسها حين تتذكّر اشياء تجعل جسدها يطبق على نفسه بانحنائه، تعود وتخفض نظراتها، كي تنسى ما لا يرفعها.

لكنّ عينيها لا تنسيان أنهما ستصطدمان حتماً بدوائر بصاق كبيرة مرميّة من الأفواه على الأرصفة والطرقات، رغوات كنجوم بيضاء صغيرة وكبيرة لا تعرف من أي فم فاضت. بل تعرف، ترى بعينيها الرجال الذين يبصقون، وتسأل نفسها لماذا يبصق الرجال أكثر مما تبصق النساء؟ بل نادراً ما رأت امرأة تبصق على الرصيف. الرجال العابرون مشياً يبصقون، مهما كانت مهنتهم، ونوعهم

وعمرهم. ويبصقون من سياراتهم العابرة، يبصقون دون أن يكلّف الواحد نفسه أن يدير وجهه حين يبصق، كما يدير ظهره، خلف براميل الزبالة سحّاب بنطلونه «ويفنتر».
تقطع علوية من رصيف إلى رصيف لتنجو من البصاق. تفكّر، لماذا يضطّر البني آدم ليبصق؟ مالذي يدفعه لذلك؟ ترى هل يبصق شيئاً ما بداخله يشبه الرغوة البيضاء؟ ما هي تلك الرغوة التي تحوم بداخله طالبة الخروج؟ هل يبصق قرفه من حاله، أم يبصق حاله؟ هل يبصق خوفاً أو بشاعة ما بداخله أم ألماً ما؟
تكمل طريقها وهي تخاف من أسئلتها، متقزّزة من الرغوات والدوائر، ومن الوجوه العابرة المتمثلة بالرغوات، بل وجوه تبصقُ وجوهها وعيون تبصق نظراتها.
تصل الى المكتب وتدخل غرفتها، تغلق الباب وتفتح حقيبتها وتمسك بزجاجة العطر، تطسّ حتى تمتلىء الغرفة بالرائحة. ترفع السمّاعة طالبة من سكرتير التحرير أن يأتيها بالمقالات الخاصّة بالعطور أولاً، تضع الفواصل في مكانها الصحيح، وترى الفواصل الفاصلة بين أشباه الجمل، تتذكّر الفاصلة التي كتبتها في السطر الأول على أوراقها.

تفتح دُرج مكتبها وتسحب تلك الاوراق فلا تعرف كيف تقرأ الخط. تقرأ بصعوبة أشياء لا تتذكّر أنها كتبتها، بل تذكر أن هذا الخطّ خطّها، هل تغيّر خطّها أيضاً؟
كأنها تذكّرت أنه خطّ زهير، أو يشبهه، كيف تسلّل إلى أوراقها وغيّر ما كتبته؟
سألت هذا السؤال، بعدما قرأت في أوراقها، أن زهيراً شاهد صورتها يوماً، بين ملصقات صور الشهداء، على الجدار في الشارع، وأنه شاهدها بعينيه واقفةً تتطلّع إلى صورتها وتتأملها، قبل أن يختفي ويغيب، وكتب أنه شاهدها ترتجف، وهي تتطلّع إليها، وتموت غيظاً لأنها تكره صور الشهداء على الجدران وتخاف منها. ولو عرفت أن صورتها ستعلّق بين صورهم، لقتلت كل من ألصقها على الجدار. بل كتب، في مكان آخر، أنها كانت تتأمل الصورة التي ضاعت ملامحها آنذاك، من المطر والغبار، لتتبّين ما إذا كانت الصورة صورتها، أم صورته، أم صورة أيّ من أبطال الرواية.

لكنه لا يذكر التاريخ، ولا كيف ومتى اختفت، هي أو صاحب أو صاحبة الصورة، وصارت في عداد المفقودين؟
مَن الذي كتب ذلك، هي أم زهير؟
لم يكن الخطّ الذي تقرأه في صفحات الرواية أمامها واضحاً.. صارت تقرأ الحكاية من أولها إلى أخرها، كانت الحكايات تتداخل، واسماء ابتسام ومريم وياسمين وزهير و«أبو طلال»، وكريم ومصطفى و«أبو يوسف» وأمي وأمها، وكل أبطال الرواية، ليست مجرد اسماء أخرى في تتابع الحكاية، بعدما تنسى الأسماء، بل نصير كلنا أحيانا، مريمات وعلويات وياسمينات، وفاطمات وسميّات، ويصير زهير وكريم وأبو يوسف وأبو طلال والدكتور كامل بل والكل، كأنهم أسماء كثيرة لبطلٍ واحد.

يصير لكل إسم أسماء كثيرة، وحكايات كثيرة. تصير الأزمنة البعيدة كأنها كلها الزمن الآن. الأمس في اليوم، والغد في الأمس. تصير الأمكنة أمكنة كثيرة، لمكان واحد، ويصير من يحيا كأنه ميت. الميت كأنه يذهب إلى عمله، يدخّن ويسمع الطقش والفقش، يرقص وينجب بنات وصبياناً.

شردت بذهنها، لتتذكر من الذي كتب؟ وشردت بذهنها لتتذكّر إذا كانت الذكريات ذكرياتها، أم ذكريات الأبطال. من مريم بينهن؟ من أنا بينهن؟ من ابتسام، ومن أبو يوسف، ومن جلال ومن كريم وغيرهم؟ شردت، لتتأكد من وجهها بين الوجوه التي تقرأها، لتعرف ما إذا كانت من بين المفقودين، أو الأموات أو الأحياء منهم.

وقبل أن تتابع ما تقرأه، تركت الأوراق على المكتب، ودخلت الحمّام، أغلقت الباب، ونظرت إلى وجهها في المرآة. بدأت تتذكّر وجهها تحت ضوئه الخفيف. لمسته لتشعر بحرارته، بعدما توهّج احمراراً وخوفاً، وشاهدت جفن عينها يرتجف ويهتزّ، قبل أن تعود إلى أوراقها، لتعيد كتابة ماتقرأه، وتغيّر النقاط والحروف والفواصل و«الواوات» لتعثر على ذكرياتها ووجهها الكثيرة، ولتصير الوجوه الكثيرة وجهاً واحداً، والأسماء الكثيرة اسماً واحداً، ولتعثر، وهي تعيد الكتابة من جديد، على أسمائنا وذكرياتنا، وكذلك على ذكرياتها، لتجد مايؤكد أنها على قيد الحياة، أو بين المفقودين في الحرب، أو بعدها.

لم تتأكدّ من شيء.
تأكّدت فقط من أنّ يدها تؤلمها، وهي تعيد كتابة ماتقرأ، لتعثر على جواب. لمستْ يدها اليسرى، التي تكتب بها، فأحسّت بحرارتها، ولكنها لم تتأكّد من شيء.

لم تتأكّد من شيء.